16 em Année No. 757

Lundi — 5 — 1 — 1948

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن هذا العدد ٣٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العــــدد ٧٥٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٣ صفر سنة ١٣٦٧ — ٥ يناير سنة ١٩٤٨ » السنة السادسة عشرة

فهرس العدد

المسلمون فى معترك الخطوب



كأن الحلفاء يوم عقدوا ألوية الحرب قد عقدوا غيب ضمائرهم على الغدر بأنفسهم وبالناس، فلم يكادوا ينفضون أيديهم من تراب هتلر وحليفيه حتى أخذ بعضهم بتلابيب بعض، يتصارعون على أسلاب الحرب ويتكالبون على جثث الضحايا؛ فهذا يريد أن يغرز أنيابه هنا، وذاك يحاول أن ينشب أظفاره هناك؛ واللحوم طعوم، والذبائح أجناس؛ فوقف كل وحش بإزاء منافسه يهدده بما يملك من أسباب الحياة وبما يعلم من أسرار الموت، حتى خشع المهيض، واستكان الضعيف، واستخذى الجبان، وأقرت الأمم بالضيم، واعترفت الدول بالرق، وانتهى النزاع على ملكوت الأرض إلى قوتين متعارضتين: قوة الرأسمالية فى أمريكا، وقوة الشيوعية فى روسيا، كلتاهما تريد أن تبسط سلطانها على

المستضعفين في الأرض دون الأخرى ، والدولة التي كانت تنافسهما في استرقاق الشعوب نتفت ريشها الحرب فتأخرت عن صفها وهبطت عن مستواها ، فتركت لهما تصريف الأمر وغفت في ظلال السكينة ترجو لأجنحتها أن ترتاش ولجروحها أن تندمل ؛ فلم يبق في العالم اليوم من يقف أمام هاتين القوتين العارمتين موقف الأبي الذي يتكرم عن الذل ويتجافى عن المهانة إلا قوة واحدة تستمد بأسها من رَوْح الله ، وتقتبس هديها من نور الحق ، هي قوة الإسلام . وبحسبك أن تسمع مذياعك في أي ليلة ، أو تقرأ صحيفتك في أي يوم ، لتعلم أن هذه القوى الثلاث هي التي تتصارع وتتقارع في الغرب والشرق وما بينهما ، وسائر الأمم محتبون بهامش الميدان يشهدون هذا الصراع شهود المتفرج أو المهرج أو المراهن : فالروسيون يريدون أن يتدفقوا في سهول الشرق لينسخوا بمبادئهم دياناته وفلسفاته ، والأمريكيون يقيمون من دونهم السدود ليظلوا مستأثرين وحدهم بخيراته ، والمسلمون في تركية وإيران وباكستان وأفغانستان وإندونيسيا ، وفي أقطار العروبة من الخليج الفارسي إلى المحيط الأطلسي ، يجأرون بالشكوى ، ويصرخون من الظلم ، ويغضبون للكرامة ، ويثورون للحق ، وينادون بالجهاد ؛ ولكن أصواتهم الإنسانية اللينة تذهب في عواء الذئاب ونباح الكلاب كما تذهب النسمة الرخية في الأدغال الشواجن !

كأنما الحرب لم تخلف من المشكلات غير مشكلة الشرق الأوسط ! وكأنما المحرومون لم يتركوا من التراث غير تراث الإسلام ! وكأنما الأسرى في نظام هيئة الأمم المتحدة هم المسلمون ! فمن لم يكن له وطن من شذاذ الأمم جعلوا له موطناً من أرض العرب ! ومن ضاقت عليه مذاهب العيش في بلاده وسموها عليه من أرزاق العرب ! ومن نقت ضفادع بطنه من المستعمرين لازدراد بقمة حرام سكّنوا جوفه المسعور بقطعة من أملاك العرب ! ومن نازع المسلمين أو العرب على شيء من ديارهم الموروثة فضوا النزاع على حساب المسلمين أو العرب ! فالروس تتحلب أشداقهم على ابتلاع تركية وإيران . والهندوس يجدون العطف الأوربي على عدوانهم الوحشي على أهل باكستان . وهولندة تحاول أن تمزق بحديد الأمم المتحدة إندونيسيا ، وهذه الدولة لا تزال تشمر بمسامير النعل الهتلري الثقيلة تنوص في ظهورها الوطيئة البضة .

وانجلترة العجوز تريد أن تخلي لحاميتها أمريكا طريق الشرق فتقرر الجلاء عن فلسطين لتقتطع السودان من مصر ، وهو إنسان عينها ومهجة قلبها ، لتجعله نقطة ارتكازها في أفريقيا ، وحقيقة مجازها إلى الشرق . وفرنسا النحلة ما زالت تفرض الباقي من سلطانها على الشمال الأفريقي كله فتقيم بينه وبين أبويه الإسلام والعروبة حاجزاً من الظلام والحصر والرقابة والتجسس ، وترغمه على الاندماج بها والفناء فيها ، فيستظل بغير علمه ، ويتكلم بغير لغته ، ويؤمن بغير دينه . ولولا ممالأة الدول ومواطأة اللصوص ومناوأة الخطوب لما ثبتت هذه القدم الناعمة في رمال الريف وصخور أطلس ! وأمريكا التاجرة الطموح تصمم على أن تحول بين الشيوعية وثروة الشرق فتجعل من الإنجليز واليهود سداً كسد ذي القرنين بأخذ السودان من مصر ، وفلسطين من العرب ، وبقية امتداده من الإسلام . ولولا هذه النية الخبيثة لما ساغدت انجلترة على مصر في مجلس الأمن ، وعاونت اليهود على العرب في جمعية الأمم المتحدة .

ها هي ذي تقسم فلسطين وبها إحدى القبلتين وثاني الحرمين قسمة ضيزى بين العرب الأصلاء واليهود الدخلاء ، وتحمل الصهيونيين على صمائرها وبواخرها من أركان الأرض إلى فلسطين لينصبوا فيها الصليب للحق كما نصبوه من قبل لعيسى ، ويبذروا في القدس الشقاق للناس كما بذروه في يثرب لمحمد !

ليت شعري ما جريرة العرب والمسلمين على الأمم الأوربيين والأمريكيين ؟ هل جريرتهم عليهم أنهم فتحوا العالم وطهروه ، وأعلنوا دين الله ونشروه ؟ قد يكون مع الفتح ترة المنصرية ، ومع نشر الدين تعصب الكنيسة ، ولكن ترة المقهور وتعصب الكاهن لم يكونا وحدهما السبب في ذلك الاستخفاف الدولي بالإسلام والعروبة ؛ إنما السبب الأقوى فيما أعتقد أن المسلمين اعتمدوا على الحق دون القوة ، وعولوا على القول لا على الفعل ، واعتقدوا في الشخص لا في المبدأ ، ونسوا أن دينهم قرآن وسيف ، وتاريخهم فتح وحضارة ، وشرعهم دين ودنيا ، وحربهم جهاد وشهادة ، وزعامتهم خلافة وقيادة .

فهل آن لأبناء الأمة الوسطى وورثاء الدعوة الكبرى أن يذكروا ما نسوا ، ويجددوا ما طمسوا ، ويعلموا أن الحق هو القوة ، وأن القوة هي الوحدة ، وأن وحدة العرب كانت معجزة دين التوحيد ، قام عليها تاريخهم القديم ولن يقوم على غيرها تاريخهم الجديد ؟ !

احمد حسن الزيات

في عالم الروح

للأستاذ عباس محمود العقاد



تلقيت من الأستاذ صاحب التوقيع رسالة جاء فيها: «أن العالم الطبيعي ادون ريد تحدث مستخفاً برؤيا رآها في منامه وهي صليب كتب عليه اسمه ويليه أنه توفي في ٧ نوفمبر سنة ١٩١٠ ولم يحن ذلك اليوم حتى فارق الحياة وكتب على صليب قبره اسمه بذلك التاريخ

ثم نقل من كتاب الأرواح للشيخ طنطاوي جوهري كلاماً فحواه أن الدكتور جيبية رأى في منامه مكتبة عامرة لجاره لم يرها ولم يسمع بها من قبل، وتصفح عناوين الكثير من كتبها، ثم ذهب إلى الدار ليرى مبلغ صحة رؤياه، فإذا تلك المكتبة بعينها والكتب بعناوينها حتى أثاثها كما شاهده في النوم بلا اختلاف.

ثم نقل عن الجزء الخامس من مجلد الهلال الخامس والخمسين حلماً فصله الكاتب الخطيب المبين الأستاذ محمد توفيق دياب بك وذكر أنه رآه بتفصيله في اليقظة بعد ذلك بيومين.

وأضاف الكاتب إلى ما تقدم خلاصة حلم رآه فقال: «ولي رؤيا عجيبة وهي أنني تحدثت مع صديق في أمور اجتماعية وإذا به يستشهد بمقطوعة من أرصن الشعر وأسلسه وأبلغه. حفظت بعضها مع العلم بأنني بطيء النظم لا أكثر من تعاطيه، وكنت متوجهاً بكليتي للاستماع مع الإعجاب الشديد. ويقال أن ليس للانسان إلا عقله الباطن عند النوم، وكان عقلي الباطن كما علمت متوجهاً للاصغاء وتتبع ما يلقى عليه لا غير، ويقال إن الإنسان لا يفكر بشيئين في آن واحد... تصور أنك تسمع لخطيب وأنت متتبع لأقواله بكل إعجاب: هل يجوز الادعاء بأن ما تسمعه من بنات أفكارك؟ إذن من هو الناظم؟ وهل هو أنا؟ وقد برهنا على استحالة ذلك؟.. وكيف يتم صدق الرؤيا لحوادث المستقبل البعيدة عن المصادفات، والتي لم تكن أصداء لماض قريب أو بعيد ولكنه تنبؤ بمستقبل مجهول؟..»

عبد الجبار محمود الوائلي
(بغداد) خان الشابندر الجديد

* * *

شيء واحد يمكن أن يقال على سبيل التحقيق في الجواب عن هذه الأسئلة: وهو أن الجزم بنفي هذه الروايات على اعتبار أنها مستحيلة الوقوع إنما يكون نفياً باطلا لا يعتمد على سند من العلم ولا من البراهين المنطقية.

فوقوع الأنباء على هذه الصورة ليس بالمستحيل.

ومن قال باستحالته وجب أن يثبت لنا أنه على علم تام بأسباب الاتصال بين كل نفس ونفس وكل مادة ومادة أو كل نفس ومادة في هذا العالم الذي نعيش فيه.

وليس في وسع أحد أن يزعم أنه على علم تام بأسباب الاتصال بين مادة ومادة في عالم المكان، ودع عنك صلات النفوس والعقول التي لا تقع تحت الحصر ولا يحيط بها العيان.

ففي هذا الفضاء الشاسع أشعة من النور لا تراها العين وهي مع ذلك تنفذ في المعادن الصلاب وتؤثر في الأحياء وغير الأحياء؛ وبعض هذه الأشعة يعرف بالآلات وبعضها لا يعرف بغير التقدير والترجيح، وكلها لا تغنينا شيئاً في بيان سبب التأثير الذي يقع من جرم على جرم آخر في أجواز الفضاء الرحيب. فما هي قوة الجذب؟ وما هي قوة الدفع؟ وما هي قوة الإشعاع؟ ولماذا يكون الإشعاع حركة سارية تنطلق من الذرة المشطورة فتعصف بالقوى؟ وما الذي يتحرك حين يحدث هذا الإشعاع؟ هل الحركة هي القوة أو الحركة نتيجة القوة؟ وكيف تحدث هذه أو تلك أو تنتقل بالمقدار الذي يرصده الراصدون؟

كل هذه أسئلة لا يقطع المجيب عنها بجواب مفروغ منه متفق عليه ، وهي مع ذلك أسئلة من النور أي من المثل الأعلى للوضوح والظهور فيما تقع عليه العين ويتمثل به اللسان .

فالذى يزعم لنا أن أسباب الاتصال بين نفس ونفس ، أو بين عقل وعقل ، محصورة محدودة يمتنع كل ما عداها ، فهو مدع بما ليس في علمه ولا في علم أحد من البشر ، ويلزمه دليل ما يدعيه ولا دليل هناك .

لكن هل يجوز لنا أن نبنى على هـذا أن تلك الأنباء قطعاً من إيحاء عقل لعقل أو رسالة روح إلى روح ؟

إن أسئلة كثيرة تلزمنا قبل أن نخلص إلى هذا القول على وجه التحقيق ، ولنضرب المثـل بما رواه صاحب الخطاب عن إدوين ريد .

فهل رأى إدوين ريد نبوءات أخرى غير النبوءة بيوم وفاته ؟ وهل رأى غيره نبوءات مثل نبوءته بيوم الوفاة ؟

إن كانت رؤيا إدوين ريد هي النبوءة الوحيدة التي صدقت فهناك محل للسـؤال : لِمَ لَمْ تتهيأ روحه لمعرفة الغيب إلا في هذه الحالة ؟

وإن كانت هي واحدة من نبوءات كثيرات كذبت كلها ما عدا هذه النبوءة فاحتمال المصادفة هنا يخطر على البال إلى جانب الاحتمال الآخر : وهو تلقى الرسالة من عالم الروح . ويوم « ٧ نوفمبر سنة ١٩١٠ » كأي يوم آخر في أيام السنين ، لا موجب لاستثنائه ولا موجب للقطع بأن الإنباء به من توفيق المصادفات

وقد يجوز أن ألف إنسان غير إدوين ريد لاحت لهم في الرؤيا تواريخ تنبىء عن يوم وفاتهم . فلماذا لم تسجل هذه التواريخ كما سجل تاريخ « ٧ نوفمبر سنة ١٩١٠ » ؟

إن كانت صدقت كلها ولم تسجل كلها فهذا غريب مستبعد ؛ وإن كانت لم تسجل لأنها لم تصدق فإن احتمال المصادفة يزداد ، لأنه حالة واحدة بين مئات من الحالات .

وإنما تخرج هـذه الأنباء من عالم الغرائب والمصادفات إلى عالم الحقائق المتواترة إذا أمكن تطبيقها كما تطبق تجارب العلوم ؛ وليس هذا التطبيق بالميسور في مسائل العـقل والروح ، لأنك تستطيع أن تحكم بأن كل مادة ككل مادة ، وأن التجربة فيها تتكرر على منوال واحد أو مع اختلاف جد يسير . ولكنك لا تستطيع أن تحكم بأن كل عقل ككل عقل في الخصائص والآثار . فيجوز أن روحاً تتلق وروحاً أخرى لا تتلق ، ويجوز أن حالة التلقي لا تطرد في جميع التجارب على نمط واحد .

وههنا موضع الإعضال في تعميم الحكم على مسائل العقول والأرواح .

فغاية ما ينتهي إليه اليقين في هـذه المعضلة أن الاتصال بين العقول أو بين الأرواح غير مستحيل ، ولكنه كذلك غير محتوم من الأمثلة التي تذكر في هذا السياق ، وبخاصة إذا نحن أحضرنا أن الرواية عن المنام تتسع لكثير من التحريف والانحراف ، لأن المنام بطبيعته غير مثبت للمراجعة والتأكد من الصور الغامضة التي تتلاحق فيه ، وقد يتممها الخيال بعد وقوع الحوادث التي تشبهه في عالم اليقظة ، وإن تقاربت المسافة بين رؤية اليقظة ورؤيا المنام .

فيجوز أن الرؤى التي أشار إليها الكاتب رسائل من روح إلى روح ، أو من العقل المحيط إلى عقول الآحاد . ولكن الجزم لا تكفي فيه هذه الرؤى ولا تلك الروايات .

***

أما نظم القصيدة في المنام وتخيل الإصغاء إليها من صديق فهو ظاهرة مختلفة تكفى التجارب النفسانية لتفسيرها ولا استحالة فيها على الإطلاق .

لأن نظم الشـعر في النوم يحدث لغير قليل من الشعراء ، وقد روى عن كولردج الشاعر الإنجليزي أنه نظم قصيدة مطولة من أجود شعره وهو نائم ، ولست أستبعد ذلك . لأنني تتفق لي أبيات من الشعر أنظمها في المنام وأنا مشـغول الذهن بالنظم أو غير مشغول ، وإن لم يتفق لي في هذه الحالة نظم المطولات .

أما استحالة النظم والإصـغاء في وقت واحد فليس بواقع . لأن الإصغاء تخيل لا حقيقة له في الخارج ، وكل ما فيه أنه هو الصورة الرمزية التي اتخذها الوعي الباطن لظهور تلك الأبيات فيه

ومن طبيعة الأحلام أنها رمزية تتخيل المعاني والمؤثرات في صورة المحسوسات . فيبدو للمكروب في حلمه أن عدواً مطارداً يشدد عليه الخناق ، أو أن وحشاً مفترساً يبطش به في مكان لا مهرب منه وهكذا يتخيل الوعي الباطن أنه يصغى إلى متكلم وهو الذي ينظم ما يصغى إليه في الخيال .

وبعد فلا استحالة — حتى أثناء اليقظة — فى تسجيل العقل الباطن شيئاً والتفاته مع الحس إلى شىء آخر .

فقد جربنا جميعاً أن نستغرق فى التفكير ويمر بنا إنسان نعرفه فلا نلتفت إليه . ثم نذكر أنه قد مر بنا بعد انتهاء حالة الاستغراق ، وقد نذكر أنه قد حيانا بكلمات نحفظها ونُحسب أننا لم نسمعها حين فاه بها ، ونحن قد سمعناها وسجلناها على غير انتباه.

ولا حاجة بنا فى هذه الظاهرة إلى فرض المصادفات ، لأن الواقع فى أمثال هذه الظاهرة متكرر متواتر يمكن القياس عليه .

أما الإنباء بالمجهول فشاطئ الأمان فيه أنه لا إثبات بغير دليل يقبل التكرار والتواتر ، ولا إنكار بغير دليل كذلك الدليل .

وقد نرجح الإثبات بغير دليل على الإنكار بغيره . لأن المنكر المتعسف يغلق الباب على ما سيعلم فى المستقبل ، ولا يزيد المثبت المتعسف على الخطأ فى الواقع كما رآه أو تخيل أنه رآه ...

عباس محمود العقاد

النساء فى القرآن الكريم

لصاحب الفضيلة الأستاذ محمود شلتوت



كثر كلام الناس قديماً وحديثاً حول منزلة النساء فى الإسلام ، فمنهم من زعم جهلا أو تجاهلا أن الإسلام اهتضم حقوقهن ، وانتقص مكانتهن ، وأخذ يغرى المرأة بالثورة على الإسلام بحسب ما صوّر لهم من تعاليم نسبها إليه وأقنعها بأنها السبيل الذى رسمه لها ، والواقع أن الإسلام منح النساء كل خير وصانهن عن كل شر ، ولم يأت عليهن سوى ما دفعتهن إليه هذه المدنية الكاذبة من « حرية » جعلت الغربية من النساء إذا ما خلت إلى ضميرها الإنسانى تبكى دما على الكرامة المفقودة ، والعرض المبتذل ، والسعادة الضائعة. وسيعلم النساء متى تُبْن إلى رشدهن أن لا منقذ لهن ، ولا حافظ لكرامتهن وحقوقهن سوى هذه التعاليم الإلهية التى يحاول المغرضون والمخادعون لهن أن يصوروها فى أعينهن بصورة الأغلال التى تطوق الأعناق وتحول بينهن وبين ما لهن من حق فى الحياة .

وأرجو أن أقدم للنساء عامة وللمسلمات منهن خاصة تحت هذا العنوان ، وعلى صفحات الرسالة الغراء ، خطوط هذه الجولات الواسعة التى رسمها القرآن الكريم فى سبيل الإرشاد إلى حقوقهن ، وبيان أحكامهن ومنزلتهن فى حياة الأسر التى تعتبر بحق اللبنات الأولى فى بناء الأمم ، والتى تخلع على الأمة مالها من كيان قوى أو ضعيف .

والقرآن هو المصدر الأول للتشريع الإسلامى ، والحكم الأعلى الذى يحكم على غيره ولا يحكم الغير عليه .

* * *

قرأت القرآن وتتبعت أبرز مواقفه فى جانب النساء ، فوجدته خير ما يصور للناس عناية الإسلام بالنساء ، وحظوتهن فى تشريعه ، وليس بعد كلام الله كلام ، ولا بعد تشريعه تشريع .

عرض القرآن للنساء فى أكثر من عشر سور ، وكلها من المدنى الذى كان شأنه وقت التنزيل فرض الحقوق ، وبيان الواجبات ، وتنظيم الشئون ، والإرشاد إلى ما ينبغى فى شئون الأسر ، وشئون الأمم .

عرض لهن فى سورة البقرة فى ربعين عظيمين هما « يسألونك عن الخمر والميسر » ، « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » .

بين فيهما حكم تزوج المسلمة للمشرك الذى لا يؤمن بكتاب ولا رسول ، وأبطل بعض المعاملات الضارة التى كان يعتادها أهل الجاهلية مع النساء ، وبين الطلاق الذى يملك الرجل فيه رجعة الزوجة والذى لا يملك به الرجعة ، كما بين أن لها الحق فى افتداء نفسها من سوء العشرة بما تملك من مال ، وبين مساواتها

للرجل فيما لها وعليها من الحقوق الزوجية ، كما أمر بإمساكها بمعروف أو تسريحها بإحسان ، وحذر القوم من عضل النساء ومنعهن أن يتزوجن بمن يردن طمعاً فى مالهن وضراراً لهن ، ثم بين أن المرأة شريكة الرجل فى شأن الولد وإرضاعه ، وأنه لا يصح للرجل أن يبت فى هذا الشأن برأى دون « تراض منهما وتشاور » وبين فى هذا السياق الخطبة وأدبها كما بين حق المطلقات فى المتعة ، وهى ما يبذله الرجل للمرأة بعد طلاقها مما تتعزى به ويخفف عنها وقع الفراق ، « وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين » .

وبين عدة المتوفى عنها زوجها ، وحث الأزواج على الإيصاء لهن بعد الوفاة بأكثر مما تستحق إحداهن بالعدة .

وعرض لهن فى سورة المائدة ، وبين حل تزوج المحصنات الكتابيات منهن، وسوى فى ذلك بينهن وبين المحصنات المؤمنات .

وعرض لهن فى سورة النور ، وبين ما يردعهن عن ارتكاب ما يزرى بالكرامة ويخل بالشرف والمكانة ، كما بين حكم من تعدى عليهن بالقذف زوجاً كان أو غير زوج ، وشرع الأدب الواجب حين الدخول عليهن فى بيوتهن ، وذلك حفظاً لهن من أن تقع عليهن الأنظار ، وهن فى حالة التبذل والقيام بالمصالح المنزلية . كما خص هؤلاء الذين نضبت وجوههم من ماء الحياء بشديد من التحذير مما اعتادوا فى إكراه الفتيات على البغاء تكسباً بعرضهن « لا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » .

وعرض لهن فى سورة الأحزاب وعالج كثيراً من المشاكل المنزلية وما يجب عليهن من آداب ، وقد اتخذت السورة زوجات الرسول مثالا حياً فيما ينبغى أن تتخذه الزوجة أساساً لحياتها المنزلية الفاضلة .

وعرض لهن فى سورة المجادلة فاستمع إلى رأى المرأة واحترمه ، وقرره مبدأ يسير عليه التشريع العام الخالد ، وبذلك كانت آيات الظهار التى بدئت بها السورة المذكورة أثراً من آثار الفكر النسائى ، وصفحة إلهية خالدة نلمح فيها على ممر الدهر صورة احترام الإسلام للمرأة وأن الإسلام ليس كما يظن أعداؤها يراها مخلوقاً يقاد بفكر الرجل ورأيه ، وإنما لها رأيها وللرأى قيمته ووزنه يقول أوس بن الصامت لزوجه خولة بنت ثعلبة « أنت على كظهر أمى » وكان المعروف فى الجاهلية أن الرجل إذا قالها لزوجته حرُمت عليه . ثم دعاها فأبت وقالت : والذى نفس خولة بيده لا تصل إلى وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله . ثم أتت رسول الله فقالت : يا رسول الله، إن أوساً تزوجنى وأنا شابة مرغوب فى ، فلما خلا سنى ونثرت بطنى جعلنى كأمه وتركنى إلى غير أحد ، فإن كنت تجد لى رخصة يا رسول الله فحدثنى بها . فقال عليه السلام : ما أمرت فى شأنك بشىء حتى الآن ، وما أراك إلا قد حرمت عليه ، فأخذت تجادل رسول الله مراراً وتقول: إنه ما ذكر طلاقاً فكيف أحرم عليه ؟ إن لى منه صبية صغاراً إن ضممهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلى جاعوا . وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إنى أشكو إليك . وما برحت هكذا حتى نزلت الآيات « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير » . نزلت الآيات تشنع على المظاهرين من نسائهم ، وتضع طريقاً للخلاص من الظهار ، وتبين أنه ليس طلاقاً ولا موجباً للفرقة ، كما كانت ترى خولة بنت ثعلبة .

وهذا أسمى ما تصبو إليه النساء فى احترام رأيهن متى صادف الحق والمصلحة . وليعتبر بهذا المرجفون المتدون .

وعرض لهن فى سورة الممتحنة وبين حكم النساء يهاجرن مؤمنات من بلاد الأعداء إلى بلاد الإسلام ، وحكم حلهن لأزواجهن السابقين ، وحكم زواجهن بالمؤمنين ، وبينت حق النساء فى المبايعة على السمع والطاعة ، والقيام بحدود الشريعة وأحكامها ، وأنهن فى المبايعة كالرجال ، وقد روى المفسرون قصة هذه المبايعة التى شغلت مركز الرياسة فيها عن النساء « هند بنت عتبة » ، زوج أبى سفيان ، وهى قصة طريفة تملوها ظاهرة عظيمة من حرية الرأى فى النقاش والحوار . حرية لا يظفر بها الرجال عند أعظم ملوك الأرض ديمقراطية .

وعرض لهن فى سورة التحريم فى شأن جرى بين زوجات الرسول ، ويقع بين كل الزوجات فى كل زمان ومكان ، وفيها تقررت مسئولية المرأة عن نفسها مسئولية مستقلة عن مسئولية الرجل ، وأنه لا يؤثر عليها ، وهى صالحة ، فساد الرجل وطغيانه ، ولا ينفعها ، وهى طالحة ، صلاح الرجل وتقواه «وضرب الله مثلا

للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين » . « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين » .

وعرض القرآن الكريم بعد هذا للنساء فى سورتين : سورة النساء وسورة الطلاق ؛ وكثيراً ما يطلق على الأولى اسم « سورة النساء الكبرى » ويطلق على الثانية « سورة النساء الصغرى » .

وكم تنبض قلوب النساء فرحاً بتكريم الله لهن وعنايته بهن حينما يسمعن أو يعلمن أن فى القرآن سورتين سميتا باسمهن، وعالجتا كثيراً من شئونهن فى أطوار حياتهن كلها من عهد الطفولة إلى عهد الزوجية والأمومة ، وأن إحدى السورتين وهى الكبرى تبدأ بخطاب الناس جميعاً ، وأن الأخرى وهى الصغرى تبدأ بخطاب الرسول ، وفى هذا وذاك حث شديد للحاكم والمحكوم ، أو الرئيس والمرءوس على مراعاة ما يفرض بعد الخطاب فى أمر النساء من أحكام وارشادات . ولا ريب أن منزلة النساء من العاطفة ومركزهن الاجتماعى فى الأمة جديران أن تستأثر فى أمرهن عاطفة الرحمة التى يحملها وصف النبوة «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » ووشيجة الرحم التى تجمع بين الناس ذكوراً وإناثاً « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » .

وهذا وضع يجدر بالذين يرمون الإسلام بأنه يحط من قدر النساء أن يلتفتوا إليه وأن يكفوا عن زعمهم أن الإسلام لم يمنح المرأة من العناية والاهتمام ما منحته لها المدنية .

هذا وقد عرضت سورة « الطلاق » لبيان الوقت الذى يجب على الرجل مراعاته إذا أراد أن يطلق زوجه إتقاء للاضرار بها ، كما عرضت لبيان أنواع عدة المطلقة وما يجب فيها من النفقة والسكنى .

أما سورة النساء الكبرى فقد عرضت لمبادىء هى أساس سعادة المرأة وهنائها ، وبالتالى أساس السعادة الزوجية والحياة المنزلية ونستطيع أن نجملها فيما يلى :

١ — أعلنت سورة النساء أن المرأة أحد العنصرين اللذين تكاثر منهما الإنسان ، وجعلت ذلك نعمة توجب على الناس تقوى الله ومراقبته « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا » .

٢ — وقررت مساواة النساء بالرجال فيما هو من خصائص الإنسانية فشرعت الكسب للنساء كالرجال ، وأرشدت كلا منهما إلى تحرى الفضل والخير من الأموال بالعمل دون التمنى والتشهى ، وأنه ليس للرجل أن يسلب المرأة من العمل الذى خلقت له ، كما أنه ليس للنساء أن يطمعن فيما وراء مؤهلاتهن الطبيعية وفى ذلك يقول الله : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » .

٣ — وقررت أن للنساء ثواب أعمالهن الصالحة كالرجال وفى ذلك يقول الله تعالى « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » .

٤ — ورفعت شأن المرأة عن أن تكون متاعاً يورث كما تورث الأموال ، وفرضت لها حرية فى ذاتها وأموالها «يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن » .

٥ — وشرعت نظاماً للزواج فيه تكريم للمرأة والأسرة ، فحظرت التزوج بأصناف حفظاً لروابط لا ينبغى أن تعرض بالزواج إلى الفساد : حظرت زواج الابن من زوجة الأب ، وزواج الأب من حليلة الابن ، وزواج الأمهات والبنات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت والمرضعات والأخوات من الرضاعة وأمهات النساء والربائب . وحظرت الجمع بين الأختين ، وزواج المتزوجات والمعتدات . وذلك كله فى قوله تعالى «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء» إلى قوله « والمحصنات من النساء » .

٦ — وأشارت إلى تخير الزوجات من وسط الحرائر المؤمنات وأنه لا يجوز العدول إلى غيرهن إلا عند العجز عنهن وخوف العنت ، وذلك شأن له قيمته فى إنجاب الولد ، واختيار البيئة الصالحة لتربيته ، وضمان التوافق والسعادة فى الحياة الزوجية ، وذلك فى قوله تعالى « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » .

ومن هنا أخذ الفقهاء أن الشريفة مقدمة فى الزواج على غير الشريفة ، وأن حسنة السمعة مقدمة على سيئة السمعة . وفى هذا إيحاء قوى إلى النساء بأن يعملن جهدهن على تحسين سمعتهن وتحليتهن بالأخلاق الفاضلة التى ترغب فيهن الأزواج ، ولعل ما اتخذته الفتاة لنفسها من حرية واسعة فى هذه الأيام كان له نصيب كبير فيما نرى من أزمة الزواج ، فعلى الفتاة أن تتدبر فى أمرها ، وعليها وحدها أن تحل تلك الأزمة إن أرادت لنفسها الخير والسعادة .

٧ — وأفرغت السورة على عقد الزواج صبغة كريمة أخرجته من أن يكون عقد تمليك كعقد البيع والإجارة ، أو نوعاً من الاسترقاق والأسر كما كانت المرأة قبل الإسلام عند العرب وغيرهم وسمته « ميثاقاً غليظاً » ولهذا التعبير قيمته فى الإيحاء بمعانى الحفظ والرحمة والمودة ، فالزواج فى نظر القرآن عهد شريف وميثاق غليظ ترتبط به القلوب وتختلط به المصالح ، ويندمج به كل من الطرفين فى صاحبه فيتحد شعورهما ، وتلتقى رغباتهما ، وآمالهما ، هو علاقة دونها علاقة الصداقة والقرابة ، وعلاقة الأبوة والبنوة « هنَّ لباس لكم وأنتم لباس لهن » .

٨ — وأوجبت على الرجل أن يبذل للزوجة ما لا سماه الله « صدُقة » ووصفه بأنه نحلة — والنحلة ما يمنح عن طيب نفس بدون مقابلة عوض — ولا ريب أن الصلة بين الزوجين أعلى وأشرف من أن يجعل عوضها دراهم معدودة ، فليس المهر ثمناً ولا فى مقابلة شىء فى المرأة كما يظن كثير من الناس ، وإنما هو آية من آيات المحبة والتقدير وأنه لذلك كان واجباً على الرجل ، وإن اتفق الزوجان على أن لامهر للزوجة « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً » . وقد كان المهر بذلك حقاً للزوجة لا يحل أن يأخذ الزوج منه شيئاً إلا بطيب نفسها . بذلك تقرر لها حق الملكية الصحيحة الخالصة من رقابة الزوج وهيمنته . وهذه درجة منحها الإسلام للمرأة منذ أربعة عشر قرناً فى حين أن النساء فى أوربا وفى القرن العشرين لا يتمتعن بهذا الحق الذى تتمتع به المرأة فى ظل الإسلام .

٩ — وبينت السورة الدرجة التى جعلها الله للرجال على النساء بعد تساويهما فى الحقوق والواجبات ، وأنها لا تعدو أن تكون درجة الإشراف والرعاية بحكم القدرة الطبيعية التى يمتاز بها الرجل عن المرأة ، وبحكم المال الذى ينفقه قياماً بما تحتاج إليه حتى تقوم بما عليها من حقوق الزوجية . وليست تلك الدرجة بدرجة الاستعباد والتسخير كما يصورها المخادعون المغرضون ، وذلك فى قوله تعالى « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » .

١٠ — قد أرشدت السورة بعد هذا إلى أن النساء أمام هذه الرياسة منهن صالحات ، ومنهن غير صالحات ، وأن من شأن الصالحات القنوت وهو السكون ، والطاعة لله فيما أمر به ، ومنه القيام بحقوق الزوجية والرياسة المنزلية ، والاحتفاظ بالأسرار التى لا ينبغى أن يطلع عليها أحد غير الزوجين ، وأن هذا الصنف من الزوجات ليس للرجال عليهن شىء من سلطان التأديب.

أما غير الصالحات ، وهن اللاتى يحاولن الخروج على حقوق الزوجية ويحاولن الترفع والنشوز عن مركز الرياسة ، بل على ما تقتضيه فطرهن ، فيعرضن بذلك الحياة الزوجية للتدهور والانحلال — فقد وضعت السورة لردعهن وإصلاحهن وردهن إلى مكانتهن الطبيعية والمنزلية طريقين واضحين : وكلت أحدهما إلى الرجل بحكم الإشراف والرياسة ، وهو أن يعالجها بأنواع من العلاج لكل صنف من النساء ما يليق به ، ويكفى فى ردعه ، وهى الوعظ والهجر والضرب ، فالتى يكفيها الوعظ بالقول لا يستعمل معها الهجر والضرب ، والتى يصلحها الهجر لا يتهاون فى جانبها بالوقوف عند حد القول والوعظ ولا يسرف فيصل به الأمر إلى حد الضرب . وهناك صنف من النساء فى بعض البيئات لا تؤثر فيه الموعظة ولا يكترث بالهجران ولا يصلحه إلا نوع من التأديب المادى . وقد جعل الله الضرب آخر الوسائل التأديبية إشارة إلى أنه لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة ، وقد أساء المتحضرون من أبناء المسلمين أنفسهم فهم هذا النوع من التأديب وجعلوه نوعاً من الطغيان الذى لا يتفق وكرامة الزوجة ، وهم فى الواقع يتملقون عواطف المرأة ، ويتظاهرون بالحرص على مصلحتها وكرامتها ، ونحن نسائل المرأة العاقلة : أى الأمرين أحفظ لحياة الزوجة ؟ أأن تنال بشىء من العقوبة

(البقية على صفحة ١٢)

من آثار الإسلام في الهند

تاج محل

للدكتور عبد الوهاب عزام بك
وزير مصر المفوض في المملكة السعودية



ملنا عن الجادّة الكبرى في أكراسوب الشرق فرأينا حُجُـرات وقباباً متفرقة . ثم دخلنا ساحة واسعة في جانبيها من الشرق والجنـوب رواقان كبيران كأنهما أعدا لإيواء الزائرين والحرّاس . وإلى الشمال مدخل المزار وهو كالمداخل الأخرى ، عَقد رفيع تتصل به حجرات في طبقتين . وهو أصغر من مدخل مزار جلال الدين أكبر الذي وصفناه قبلا ؛ ولـكن فيه من الضخامة والعلاء والجمال ما يؤهله أن يكون مطلعاً للقصيدة الرائعة التي وراءه .

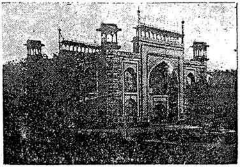
وعلى طاق المدخل الداخلي كتبت سور من القرآن : الضحى ، والم نشرح ، والتين . وقد خطت الآيات بخط يختلف كِبَراً وصِـغَراً على نسبة بُعده عن الناظر فيرى القارىء ما بعُد منه وما قرُب بمقدار واحد .

فإذا التفت القارىء إلى الحديقة وأحواضها ونافوراتها وهذا الهيكل الجميل الماثل في وسطها ، ازدحمت على بصره وعقله وقلبه مناظر وأفكار وعواطف تقفه معجباً مرتاعاً .

حديقة فسيحة ناضرة يزدحم فيها الشجر، وتتشابك الأغصان والتـاج في الوسط ، وفي أقصى الحديقة إلى اليمين والشمال بناءان تطفو قبابهما من بعيد على هذه اللجة الخضراء . وسنذكرهما بعد . ويشق الحديقة من مدخلها إلى التاج حوض مستطيل اصطفت فيها نافورات يخر ماؤها في الحوض فتسمع وسوسة تخالها موسيق هذا الجمال أو قصيدة تصف هذا المزار يهمس بها شاعرها .

ويمتد على جانبي الحوض خندقان فيهما نبت وزهر تُنَاسِبُ نضرتهما واهتزازهما صفاء الماء وترقرقه ، ووراء هذين على الجانبين مَمْشَيَان عريضان .

فإذا سار السائر على أحدهما وقفه في نصف الطريق حوض عال من المرمر يصعد إليه بخَمْسَ درجات في جوانبه الأربعة . وله حافة واسعة يقف عليها الزائر أو يجلس على أحد المقاعد الرخامية الأربعة في جوانبها فيتأمل في هذه المرآة الرائعة صورة التاج . فيحار طرفه بين المنظرين ، وينقسم إعجابه بين الصورتين . فإذا راقه هذا المنظر جلالا وجمالا وملأه روعة وإعجاباً ، هبط إلى التاج ، إلى حرم الجمال الماثل أمامه فينتهي السير إلى دَكّة فسيحة من الحجر الوردي تحيط بالبناء تعلو عن الحديقة خمس درجات يتقسمها أحواض الماء ومجار. وفوقها الدكة العليا الرخامية التي هي قاعدة هذا التمثال المسمى بالتاج ، فيخلع نعليه إكباراً لهذا الجمال وإجلالا فيصعد إحدى وعشرين درجة إلى الساحة العليا فوق الدكة الرخامية الرائعة . وعلى زوايا هذه الدكة أربع منارات عالية ضخمة كلها من الرخام الأبيض وهي منفصلة عن البناء في منظر متناسب متناظر ، ثم يتقدم إلى الحرم الرائع في جملته ، المحير في تفصيله ؛ إذا نظرت إليه كله راعتك القبة البيضاء وحولها قباب صغيرة في أركان البناء بينها منارات صغيرة في جوانبه الأربعة ومنظر الباب والشبابيك الرخامية ، أبدعت فيها الهندسة وتم فيها التناسب والتناسق .



مدخل الحديقة التي فيها تاج محل

وإذا تأملت تفصيله ، رأيت من دقائق الصنعة في النحت والتشكيل والتحلية والترصيع والكتابة والتصوير إبداع الصنعة وإعجاز الفن .

وتصعد أربع درجات أخرى ، وتقف أمام البــاب فتقرأ على الطاق العالى أول سورة يس كأنها تعويذة لهذا الجمال من العين ،



قبر ممتاز محل (إلى اليمين) وقبر شاهجهان

ولكن جمــال الخط فى حاجة إلى التعويذ كذلك . وترى حول الباب سورة «إذا الشمس كورت» . وعلى الطاق من الداخل أول سورة تبارك . وتحتها : « كتبه الفقير الحقير أمانت خان الشيرازى سنة هزار وچهل وهشت هجرى مطابق دوازدهم سنة جلوس مبارك

وترجمة التاريخ :

« سنة ثمان وأربعين وألف هجرية المطابقة السنة الثانية عشرة من الجلوس المبارك » (يعنى جلوس شاه جهان) .

وتدخل وفى النفس ما فيها ، فتخطو خطوات إلى درج يهبط إلى حجرة واسعة فيها قبران . فى وسط الحجرة ضريح (ممتاز محل). ومن أجلها بنى زوجها شاه جهان هذا البناء كله ، وإلى جانبه قبر أكبر منه هو قبر هذا الزوج الوفى . ويقال إنه أراد أن يبنى لنفسه مزاراً آخر من الرخام الأسود على الشاطىء الآخر من نهر جمنه كأنه أراد أن يقوم مزاره أمام هذا التاج فى ثياب الحداد أبد الدهر . ولــكن ابنه وخليفته أورنك زيب (زينة العرش) وكان مقتصداً زاهداً آثر أن يدفن أباه بجانب زوجه .

وترجع إلى الدرج صاعداً لتدخل حجرة فوق الحجرة التى فيها القبران ، وفى الحجرة مقصورة من الرخام المخرم نفيسة المادة جميلة الصورة . كان لهــا باب من حجر اليشب نهب فيما نهب فى ثورة الجــات .

وفى وسط المقصورة مثالان للقبرين ، وعلى هذين المثالين وجدر الحجرة من الأحجار الثمينة المنزلة فى الرخام على صور أزهار وأشجار ، ومن الــكتابة الجميلة ، ما يود الزائر أن يقف أمامه لا يبرحه ، وأن يعود إليه عاجلا إذا برحه . وأما الخبراء بالصنعة فلا ينقضى عجبهم وإعجابهم بهذا الإعجاز .

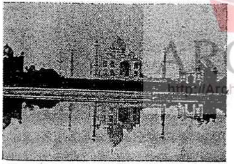
وعلى قبر ممتاز محل هذه العبارة :

« مرقد منور أرجمند بيكُم مخاطب ممتاز محل توفيت سنة ١٠٤٠ »

(المرقد المنور للأميرة الفاضلة الملقبة ممتاز محل الخ) .

وعلى قبر شاه جهان :

« مرقد منور وروضة مطهر بادشاه رضوان استكاه . خلد آرامكاه أعليحضرت عليين مكانى ، فردوس آشيانى صاحب قران ثانى شاه جهان بادشاه غازى طاب ثراه وجعل الجنة مثواه . درشب بيست وششم شهر رجب سنة هزار وشست وهفت هجرى) وترجمتها :



منظر التاج على نهر جمنه وصورته فى الماء ويظهر المسجد إلى اليمين وجانب من البناء المناظر للمسجد إلى الشمال

(المرقد المنور والروضة المطهرة للسلطان ساكن الرضوان ، نزيل الخلد مَن مكانه عليون ، ومأواه الفردوس ، صاحب القران الثانى ، السلطان شاه جهان الغازى طاب ثراه وجعل الجنة مثواه . فى ليلة السادس والعشرين من شهر رجب سنة ١٠٦٧) .

وإذا ترك الزائر هــذا المقام الجليل وهبط على درجات الدكة الهائلة فتوجه نحو الشمال رأى نهر جمنــه وراءه المُسَنَّاة(١) العظيمة التى بنيت على النهر لتدعم هذه الروضة وما فيها من أبنية ، ورأى درجاً داخل السور يهبط إلى الماء . وكم أعجب التاج بجماله فى هذا النهر وأولع المصورون بتصوير البناء وعكسه فى الماء .

(١) الأساس يبنى على جانب النهر .

وعلى النهر، في منتهى الروضة إلى الغرب مسجد جميل أمامه ساحة فسيحة مرتفعة لهـا درج . وهو أسلوب آخر من إحكام الهندسة وإتقان الصنع والتصرف في هـذا الحجر الوردي الذي بنى به . ولا أشق على القارىء بوصفه .

ويقابل هـذا المسجد على النهر في الجهة الشرقية بنـاء آخر يشبه المسجد في جملته وتتصل به أبراج ومنظرات مشرفة على النهر. وقد بنى مناظرة للمسجد ولهذا يسمونه « الجواب » . وهندسة الأبنية التيمورية كلها قائمة على التناظر والتشاكل فلم يجيزوا أن يبنى المسجد في زاوية من الحديقة دون أن يناظره بناء في الزاوية الأخرى .

زرت التاج ثلاث مرات في يوم وليلة . وأود الآن أن أعود إليه فأقيم عنده أياماً . وقد وصفت بعض ما بقى في الذاكرة منه ووراء هذا ما لا يستطيعه الوصف ، ولا يحيط به البيان . ولعل الصور التي مع هذا المقال تعين القارىء على تصوُّره

***

في مقال (أكرا) من دائرة المعارف البريطانية :

« عظمة أكرا مستمدة من أجل أبنية العالم : البناء الشمرى تاج محل... صُوِّرَ التاج ومُثِّلَ أكثر من أى بناء آخر في العالم . وصُوَرَه لا عدَّ لها . وغاية ما يوصف به أنه حلم من الرخام .

وهو في التلوين والرسم وصـناعة التحلية والتزيين يفوق كلَّ عمارات العالم . ومظهره المتناسب إذا رئى مرة لا ينسى أبداً ولا تُنسَى رشاقة قبابه التي تعلو في الهواء كفقاقيع من الرمر في زرقة السماء .

يقول فرجسون في كتابه تاريخ العمارة :

« هـذا البناء مثال من الترصيع بالأحجار الكريمة الذى صار من أكبر خصائص الفن المغولى بعد موت أكبر .

كل زوايا التاج وكل الأركان والأجزاء المهمة محلاة بالأحجار الكريمة .

إنه أجل وأنفس أسلوب من التزيين عرف في فن العمارة .

وهذه الزينة مُفَاضَة على القبرين وعلى المقصورة المحيطة بهما ولكن يُقتصَد فيها في المسجد الذى يمثل أحد جناحى التاج وعلى النافورات والأبنية المحيطة .

والمقدرة التي لاءمت بين هـذه الزينات في الأجزاء المختلفة عظيمة كالزينة نفسها وتدل على مستوى عال في الذوق والمهارة لصناع ذلك العصر .

ويقول اللورد روبرت في كتابه « إحدى وعشرون سنة في الهند » :

لا اللفظ ولا الريشة يستطيعان أن يوحيا لأوسع القراء خيالا أصغر الفكر عن الجمال والصفاء في هذه الفكرة المجيدة .

وإنى أقول لمن لم يروه : « اذهبوا إلى الهند فالتاج وحده أهل لهذه الرحلة » .

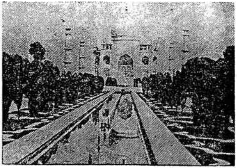
***

وأما أنا فقد سطرت الكلمات التالية بعد أن زرت تاج محل وعدت إلى دهلى :

وقفة على تاج محل

كم تمنيت أن أقف هذا الموقف ، وكم تخيلت أنى أسرِّح الطرف في هذا المشهد ، وكم قرأت حديث التاج ، وسمعت قصة التاج ، ورأيت صورة التاج . فالآن فلتَرَ العين جهرة ما شاقها إليه القراءة والسماع :

أشجار خضراء ناضرة ، تحيط ببَنِيَّة بيضاء ناصعة ، وتشق هذه الخضرة إلى هذا البياض طرق وأحواض ، وفي مطمح البصر إلى اليمين والشمال قباب عالية وردية مطلة على نهر جمنه .



منظر التاج من جهة المدخل

أما هذا البناء الأبيض المشرف وسط هذه الخضرة ، الذاهب في الهواء بقبته الكبيرة حولها قباب صغيرة ، وقد لاحت نوافذه

وشبابيكه وعقوده تتنازع العيون والقلوب وقامت حوله هذه المآذن الأربع العالية الجيلة — هذا البناء العجيب لا أدرى ما هو ! !

أقصيدة من الجمال معانيها ، ومن الرخام ألفاظها ، ومن دقائق الصنعة قوافيها وتفعيلاتها ؟ ما أجل الشعر وما أبلغ الشاعر !

ألحان مجسّمة ، وأنغام ممثلة ، وأغانٍ مصورة ؟ ؟

ما أجل الألحان وما أعذب الأنغام ، وما أحسن الغناء ! !

أأماني أبدع فيها الخيـــال ، وآمال انفسح فيها المجـال ، ثم استحالت حقائق ، وانقلبت هياكل ؟! ما أبعد الأماني وأعظم الآمال ! وما أشد ما تحقق المحال ! !

أم تلك أحلام ، أم بدائع أوهام ؛ لبست أفانين الرخام .

وما هـذه الخطوط الجيلة ، والنقوش المحكمة الدقيقة التي تحاول أن تشغل العين عن هذا البناء الضخم؟ أهي تعاويذ ورُقَى أم هي محسنات البديع في هذا الشعر البليغ !

وهذه الطرق التي يستبق فيها المـاء والنبت إلى هذا البناء . وهذه المرايا التي تفرح بما تحوى من صور . وهذه المرآة المائية العظيمة التي رفعت إلى هذا الوجه الجميل ليرى فيها جماله وسحره وفتنته .

ما تلك كلها في فنون الشعر ؟ ما هي في ضروب الموسيقى ؟ بل ما هي في غرائب الأحلام ، وعجائب الآمال والأماني ؟

***

إنما هـذا كله ، هـذا الذي تراه بناءٍ ، أو لحناً أو غنـاء ، أو أحـلاماً أو أماني أو أوهاماً — ظاهر باطنه أروع ، ولفظٌ معناه أجل ، وعلانية سرّها أجل، وصوت دلالته أدق ، وصورة معناها أرق .

وإنما باطنه هذان القبران . قبر السيدة التي شيد لها كل هذا الفن ، وقبر الزوج المحب الوفى الذى تَرجم عن حبه ووفائه بهذه الأشعار ، مصوغة من الأشجار والمياه والأحجار . ومثـل الفـكر البشرى والحضارة الإنسانية ، وعظمة الدول الإسلامية فى بنـاء كعنوان الـكتاب ، تقرأ وراءه تاريخاً وتاريخاً ، وقصصاً وعبراً ، على هذا البناء الذى بقى على الدهر تمثالا للجمال والحب والوفاء .

عبد الوهاب عزام

النساء في القرآن الـكريم

(بقية المنشور على صفحة ٨)

عند نشوزها فيردها إلى صوابها ؟ أم تترك لتسترسل فى نشوزها فتهدم بيتها وسعادتها وتشرد أطفالها ؟ .

أما الطريق الثانى فهو التحـكيم وجاءت آيته بعد آية الطريق الأول للاشارة إلى أنه إنما يكون فى حالة عجز الرجل عن العلاج وعند تطور الحالة من النشوز إلى الشقاق ، وفى حالة ما إذا كان النشوز واقعاً من الزوج نفسه ، وقد خاطب الله بهذا العلاج الأخير جماعة المسلمين تركيزاً لما يجب أن يكون بينهم من التكافل على حفظ الأسر والبيوت . وعلى الحكام أن يقوموا بمثل هذا الواجب نيابة عن جماعة المسلمين .

وطلبت الآية أن يكون الحـكمان فى هذا الشأن من أهل الزوجين ؛ وذلك نظراً إلى أن الشأن فى الأهل أن يكونوا أدرى الناس بأحوال الزوجين وأحرصهم على سعادتهما ، وأقدرهم على التأثير فى نفوسهما ، وأحفظهم لما قد يجدون بينهما من أسرار .

وإنك لتجد كل هذا فى قوله تعالى من هذه السورة « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيراً ، وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيراً » .

وبعد : فهذه صفحات النسـاء فى القرآن الـكريم أقدمها للقراء إجمالا وتفصيلا ، وهى صفحات كما ترى ويرى كل ناظر فيها ، بيضاء نقية تبسط ظل السعادة والهناءة على الحياة الزوجية ، وتكون أسرة قوية فاضلة ، وتبنى مجتمعاً صالحاً يخوض غمار الحياة بقواه الذاتية وشعوره النفسى الدقيق . ولقد كان بودى أن أبسط القول فى شرح تلك الصفحات الإلهية ولـكن الإنسان فى هذه الحياة مسخر لسلطان الظروف ، وحسب من يريد الحق هذا الإرشاد ، وكتاب الله قائم بين أيدينا ميسر للذكر والنظر فليرجع إليه من شاء والله ولى التوفيق والهداية .

محمود شلتوت

بينَ القديمِ والجديد

للأستاذ محمد فريد وجدى



منذ أن أعلن العلم الحرب على الدين فى القرن السادس عشر ، لم يَنِ عن مناوأته حيث ثقفه ، اعتقاداً منه أن الدين لا يقوم على أصل ثابت له علاقة بإيصال الإنسان إلى كماله ولكنه قائم على الأهواء التى يبعثها حب الذات فى النفوس ، وعلى الأوهام التى لا يمكن أن يقام على وجودها دليل ، والتى يكفى فى دفع سحرها عن العقول نشر العلم الصحيح بين الناس ، والعلم قد بنى على أساس دستوره المعروف ، وهو أن لا يقام لمعقول وزن إلا إذا أيده دليل من الحس ، وأنَّى للعقائد الدينية أن تجد دليلا محسوساً لتقيمُ عليه وجودها ؟

وقد وفق رجال العلم إلى جانب هذا لكشف الكثير من مساتير الوجود ، ودرسوا نواميسها ، وأقاموا عليها مخترعات ووسائل ذات أثر بالغ فى كل فرع من فروع المحاولات الإنسانية ؛ فكما ترى أثر العلم فى المدن بادية فى مصنوعاتها ومنتجاتها المحيرة للعقل ، وفى علاجاتها وذرائعها المخففة للآلام ، المزيلة للأمراض ، ترى فى القرى فى آلات الحرث والرى والبذر والتسميد والحصاد والنقل الخ الخ ، فهذه المظاهر كلها أثرت فى العقلية الإنسانية ، وخاصة عقلية المتعلمين تأثيراً عظيما جعل للعلم فيها منزلة القوامة عليها ؛ فإذا بدا لهم مجهول ، أو أعوزهم ترجيح ، رجعوا فيه إلى العلم ، ووقفوا منه عند حكمه ، وقد علمت رأى العلم فى الدين ، فماذا تنتظر أن يكون عليه الناشئون بين حضنيه ، المعولون فى بناء أحكامهم عليه ؟

هذا الأرق لحظناه فى أنفسنا ونحن فى دور الدراسة ، وكابدنا للتوفيق بين عقيدتنا والعلم مشاقَّ مضنية ، وعملنا لنشر ثمرات ما حصلناه كتباً ، ولا نزال جادين فى هذا الطريق ثقة منا بأن مستقبل الإسلام بموافقته للعلم ، وأن الذين لا يتطلبون هذه الموافقة ولا يتكلفون لإيجادها مثل ما تكلفناه ، تساورهم الشبهات والشكوك من كل مكان ، وينتهى بهم الأمر إلى الإلحاد .

إن أشد ما يصادفه طالب الإيمان من طريق العلم هى ما فى الأديان من شئون ما فوق الطبيعة ، فالعلم الرسمى لا يزال قائماً على ما كان عليه من نفيها نفياً باتاً ، وحسبان كل ما يتعلق بها من بقايا الخرافات الساذجة ، فالتوفيق بين العلم والإيمان من المحالات البعيدة الوقوع ، لذلك يشيع الإلحاد فى طلبة العلوم الكونية وفى أساتذتهم ؛ ومن كان منهم يعطف على الإيمان بها ، يكون مقوداً إليه بعاطفة لا بدليل ، ولا يعتبر هذا إيماناً فى نظرنا .

فهل من مخرج من هذا المأزق ؟

نعم ، وقد وجد منذ مائة سنة وهو ما كشفه العلماء العالميون من خصائص الروح الإنسانية وعلاقتها بعالم ما فوق الطبيعة بعد دراسات عميقة وجهود مضنية صرفوها فى تتبعها فى جميع حالاتها ودونت فى مئات من المؤلفات القيمة .

إن هذه الدراسات العلمية المحضة التى عاداها ولا يزال يعاديها ممثلو الأديان فى جميع الملل ، قد محصت تمحيصاً لم تنله العلوم الطبيعية ذاتها ، وذلك لغرابتها وشدة ما كانوا يكذبون بها . فقد أثبتت هذه الدراسات والتجارب العملية وجود عالم فوق الطبيعة متحكم فى عالمنا الأرضى ، ومصرف له على مقتضى النظام الخاص به . عالم تعلل بعوامله جميع ما عجز الفلاسفة والعلماء عن تعليله فى العالم الأرضى ، وتخيلوا له عللا وهمية أو سكتوا عنه حيرة وعجزا .

كانت الحاجة ماسة جداً فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلى هذا الفتح المظيم فى العلم ، فقد كانت المعلومات التى لم تقبل التعليل قد بلغت حداً مؤيسا ، واكتشف النقدة العلميون جهات ضعف فى العلم نفسه لا يمكن الإغضاء عنها .

وقد بين هذا الأمر الأستاذ الكبير (جوستاف لوبون) بأوفى بيان فى كتابه القيم (تحول المادة) الذى ظهر فى سنة ١٩١٠ فقال :

« اذا اتفق أن فيلسوفا من المنصرفين إلى دراسة الموضوعات ذات الحدود المبهمة ، قرأ منذ عـدة سنين كتابا فى العلم الطبيعى كان يدهش من وضوح التحديدات فيه ، وصحة البراهين ، وضبط التجارب ، فكان لايسعه الا الانحناء أمام هذه النتائج الفخمة .

« دامت هذه العقيدة فى المقررات الكبرى حافظة لقوتها فى العلم العصرى إلى أن حدثت فى الأيام الأخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت على التفكير العلمى أن يكابد من الشكوك ما كان يعتقد أنه قد تخلص منه أبد الأبيد . فان الصرح العلمى الذى كان لايرى صدوعه الا عدد محصور من العقول العالية ، تزعزع فجأة بشدة عظيمة ، وصارت التناقضات والمحالات التى فيـه ظاهرة للعيان بعد أن كانت من الخفاء بحيث يكاد لاتبلغها الظنون . .

« وقد صدرت مؤلفات على مثـال الكتاب الثمين المسمى (العلم والافتراض) لهنرى بوانكاريه ، تؤتينا بالبرهان على ما نقول فى كل صفحة من صفحاتها ، فلقد أرانا هـذا الرياضى المشهور أننا نعيش وسط الافتراضات والاتفاقات حتى فى مجال العلوم الرياضية .

« وقد كتب الأستاذ (لوسيان بوانكاريه) من جهته يقول : انه لاتوجد لدينا نظريات كبرى الآن يمكن قبولها قبولا تاما ، ويجمع عليها المجربون إجماعاً عاماً ، ولكن يسود اليوم العلوم الطبيعية ضرب من الفوضى . . ولم يظهر أن ناموساً من النواميس الطبيعية يعتبر ضرورياً ضرورة مطلقة . والآراء التى كانت تظهر لمن سبقنا انها تأسست تأسساً ثابتاً صارت اليوم لدينا موضوعات تحت المناقشة .

وختم الأستاذ (جوستاف لوبون) الآراء التى أوردها الكبار العلماء بقوله :

«من حسن الحظ لاشىء أكثر ملاءمة للرقى العلمى من هذه الفوضى ، فالوجود مفعم بمجهولات لا نراها ، والحجاب الذى يحجبه عنا منسوج غالباً من الآراء الضالة أو الناقصة التى توجها علينا تقاليد العلم الرسمى . . . الخ »

نقول وفى أثناء هـذه اليقظة من الغرور العلمى ظهر علم ما فوق الطبيعة ، ودرست ظواهره ، ومحصت تمحيصاً دقيقاً ، وتولاها رجال من ذوى الكفايات الممتازة أوصلوها إلى غايات بعيدة ، وأقعدوها على أصول وطيدة ، بحيث صارت أهلا لأن تخصص لهـا دراسات فى بعض الجامعات الكبرى كجامعات أكسفورد وكمبريدج وبورك ، وجامعات أمريكية أخرى .

هذه البحوث الروحية التى أمضت قرناً كاملا تحت فحص أعتى العقول البشرية ، وأشدهم شكيمة فى العقيدة المادية ، قد أثبتت وجود عالم روحانى ، وشاهدت حوادث من قبيل تحكم الروح فى المـادة تحليلا وتركيباً ، وخرقاً للنواميس الطبيعية خرقاً لا هوادة فيه ، فانفسحت أمام أنظارهم مناحى النظر العالى ، وأدركوا بالحس فساد النظرية الآلية التى كانوا يعللون بها وجود الكون المـادى ونظامه واتساقه ، والحياة نفسها وما إليها ، وأصبحت النواميس الطبيعية فى نظرهم ليست بالقوى الأزلية الأبدية التى صاحبت الكائنات فى وجودها ، ولكنها مظاهر لقوى مدبرة أرفع منها .

هذه المستكشفات الحديثة تفتح أمام العقل الإنسانى حقائق كانت فلسفة العلم المادى قد جعلتها من المحالات العقلية ، مثل وجود قدرة عالية تدبر الكون والكونيات ، ووجود روح فى جسم الإنسان مستقلة عنه تخلد بعد انحلاله ، ومثل بعثة أرواح عالية للأمم فى فترات من الدهر سموهم الناس بالرسل ليهدوهم إلى الخيور ، ويزعوهم عن الشرور ، ويمهدون لهم سبيل الارتقاء .

هذه البحوث لم تجتز عتبات الجامعات وتأخذ مكانها فى مصاف العلوم ، إلا لأنهـا قد جاوزت دور الفحص العلمى ، وأصبحت حقائق لا يمكن التمارى فيها .

فالسد الوحيد الذى أراه يقاوم تيار الإلحاد المندفع الذى يكتسح أمامه الأمم والشعوب ، ويلقى بها إلى مكان سحيق من الفوضى والفساد الخلقى والتناحر ، هو أن يتضلع علماء الدين من هذا العلم الجديد ، ويستخدموه لحل شبهات المشتبهين ، وكبح جماح المستهترين . وما المانع لهم من ذلك وهو يزيد فى دعوتهم تأثيراً ، ويلقى على حججهم نوراً ، ويقدع من معاطس المتفلسفة الذين يتخيلون أنهم وحدهم الذين خلصوا من أوهام العقائد ، وكل من عداهم يرسف فى أغلالها ويتمرغ فى أذيالها ، ويحمل عقله تصديق خيالات لا وجود لها .

هذا الموقف وحده يحفز المدافعين عن العقائد أن يحذقوه لكم أفواه المتحذلقين من الماديين . فاظنك والضرورة أصبحت تقتضيه ثم تقتضيه لأن انتشار التعلم فى الأمة الإسلامية تسرب

معه كثير من الشبهات القوية على وجود الروح والملأ الأعلى ، وهذه الأمور كلها أحاطها الماديون بشبهات لا يقوى على محقها إلا هذا النور الجديد ، الذى أشرق من صوب المباحث النفسية . فإذا أهملوا الاستفادة منه اضطروا للاقتصار فى دفاعهم عن الدين على استعمال الأسلحة القديمة وقد أصبحت لا تغنى حيالها شيئاً فيكونون قد رضوا لأنفسهم فى هذا الصراع المنيف بين الإسلام والإلحاد بهزيمة ساحقة .

٣٠٥٢ **محمد فريد وجدى**

مرحبا بالتقسيم! مرحى للصهيونية

للأستاذ أحمد رمزى بك



جاء وعد بلفور ونحن فى غفلة من الزمن ، وجاء وعد التقسيم والعالم العربى يتحرك ويتذمر ، مرّ الأول ولم يشعر به أحد منا ، وجاء الثانى فإذا نحن فى يوم مظلم للصهيونية وساعة قاتمة عليها ، فبراءة من العهود والمواثيق والمعاهدات ، وأذان إلى الأمم العربية أن تقاتل فى سبيل الأرض المقدسة ، فرحباً بالتقسيم ومرحى للصهيونية !

إن يوم التقسيم يوم أسود عليها ، إنه يوم الفصل ، إذ فيه يبدأ الكفاح الحقيقى للعرب فى سبيل كيانهم ووحدتهم وتحقيق آمالهم فى نظام هذا العالم الجديد .

ولا يغرنّكم أيها العرب ما ترون من فتور فإنى واثق من أن تسعة أعشار الإنسانية معنا وفى صفنا ، وإن الداء الذى نشكو منه ونئن ، يشكو ويئن منه ملايين من الخلق مثلنا وهم ليسوا بعرب ولا بمسلمين ولكنهم إما ذاقوا من اليهودية العالمية ما جعلهم أعداء ألداء لها ، وإما أنهم فى وضع سياسى واقتصادى واجتماعى لا يختلف عن الوضع الذى نشكو منه فى كثير أو قليل

فهم جميعاً لهذا السبب ولغيره من الأسباب حلفاء لنا . ولقد جاء التقسيم فكان خير دعاية لنا ، وجاء كفاح العرب ووقفتهم إزاءه لكى يشعر كل طرف من أطراف الإنسانية الواعية الراشدة أن هناك ظلماً يحيق بالعرب وأن هناك كفاحاً وقتالا فى سبيل الحق فرحباً بالتقسيم مرة أخرى !

وهناك أكثر من ذلك ، لقد أمضى أسلافنا وقتاً طويلاً وهم فى حالة ركود وإغماء عقلى لا يشعرون بما كان يحاك حولهم ، بل كانوا ينظرون إلى العالم الخارجى نظرة الرجل المطمئن إلى غده الواثق من جاره وصديقه ، القانع بالتسليم والرضى ، أما الآن فوداعاً أيتها النظرة المطمئنة الوادعة ، ووداعاً هذا التسليم والرضى ، لقد جاء التقسيم فأعلمنا أن هناك قوات تهيم فى الأرض ، أكثر تلاعباً بالألفاظ منا ، وأكثر مكراً وبطشاً وخديعة منا ، وأصبح حتماً علينا تطليق النظريات الأولى والفلسفات الشرقية والجمود والخضوع والهدوء والرضا . أصبح حتماً علينا مواجهة العالم بنظرة جادة وقوة متوثبة ، وعقل جديد ، وهذا من فضل التقسيم علينا إذ أعلمنا أن أى تراخ أو نكوص أو تراجع ، هو جناية منا فى حق أنفسنا ، لأن الأجيال القادمة ستحاسبنا على أى خطأ حساباً عسيراً ، فالويل لنا إذا لم نقف أمام التقسيم ونحاربه .

لقد عاش الشرق فى سنوات الفوضى والجمود والتخاذل ، فإذا بطارق غريب عليه استخف العرب بأمره فى بادىء ذى بدء ، وإذا هو أشد وطأة من حملة نابوليون وجنوده ، وأخطر من بريطانيا وجبروتها ، وأعمق من إيطاليا وحجافلها السوداء ، وأقوى من فرنسا وقوادها . لقد تشجع هذا الطارق فإذا به يدق الأبواب بشدة لم تعهدها آذان أهل الشرق منذ الاسكندر وقيصر ، ظناً منه أنه يرعب الشعوب التى وقفت تحارب أوربا ، وقضت على ملك الإغريق وبيزنطة ورومية ، وساقت الأسرى من الحروب الصليبية لتزين بهم قصور الهند وآسيا ، فإذا بالنائم يستيقظ وإذا بنا نبعث بعثاً من جديد ، وإذا بالطارق يدفعنا دفعاً ليحرك الجموع ويرتب الصفوف ويخلع علينا حلة جديدة من الكفاح ، فرحباً به !

إن النفوس التى وقفت تقارع الاستعمار الأوربى بأساليبه المختلفة تتقدم اليوم لتقارع الصهيونية بأساليب وأسلحة لم يكن يحلم بها

واضمو قرار التقسيم فأهلاً به .

لقد كنا نقنع بأن الأعمال التى تمت فى هذا الركن من العالم فى غضون هذه السنوات كافية ، وكنا نقارن أنفسنا بما كان عليه أسلافنا .

فنقول ها قد أصبحنا أكثر انطلاقاً منهم فى أشياء ، وها قد حققنا لبلادنا ما يشبه بعض ما تتمتع به المجموعات الراقية من مظاهر السيادة والقوة والسلطان ، فأصبح لنا دستور وجيش ونظام مالى . أما اليوم فلم نعد نقنع بالأقوال ولا بهذه المظاهر : إننا نصارح الدنيا والتاريخ ونقول :

إذا كانت حملة نابوليون بداية سيطرة أوربا علينا بنفوذها المادى ، فإن مجىء الصهيونية بداية الوثبة الكبرى ، بداية التطور المادى والعقلى معاً استعداداً لكسب معركة الشرق فى أرض فلسطين والتحرر النهائى من سيطرة أوروبا علينا .

إننا ذقنا طعم الانتصارات الحربية ولمع فيها اسم صلاح الدين وبيبرس ، وقدمنا الضحايا بالملايين فى مدى قرنين من الزمن ، وبرهنت المعارك أن الدماء التى تجرى فى عروق أبطالنا وشهدائنا أقوى وأشد من دماء فرسان أوربا ، ونحن على استعداد لخوض معارك جديدة ، وتقديم الضحايا بالسخاء الذى عرفته الحروب الماضية ، ولكننا نرحب مرة أخرى بالصهيونية ، ونقول لها مرحى ! لماذا ؟ لأن حكم الغرب وجبروته وسنوات الاستعمار لم تدفعنا إلى الأمام إلا فى الطريق المادى . أما الحرب القائمة الآن مع الصهيونية والمنظمات اليهودية العالمية فستدفعنا إلى ما هو أبعد وأقوى إلى تحطيم الجمود العقلى الذى فرض نفسه علينا . نعم لأجل فلسطين ولكى نكسب حربها ومعاركها سيسترد الشرق استقلاله الفكرى وحريته العقلية ، وسيخرج من ربقة الاستعمار الذهنى وهو بعقل أوروبى أكثر قضاء ، وتعمقاً مما يتوهم الأعداء ، نعم سينشىء ويبنى وينظم ويقود لينتصر انتصاراً يهز العالمين : أوربا وأمريكا .

فقل للذين يشكون فى هذا أن يخرجوا أقلامهم وأوراقهم ويقيدوا ما أقول : لم تعد تبهرنا السياسة التى تصب لنا الأشياء فى القالب الذى يرضى الاستعمار وأهله وأذنابه وتقول لنا هذا من عند أنفسكم .

لم تعد تجدى معنا أساليب تحريك الأطماع والغرائز وتقديم أشباه الرجال ودعاة التفكك . لقد شببنا عن هذا الطوق !

ونهمس مرة أخرى فى آذانهم فنقول :

إذا كان الاستعمار الأوربى لم يجعل منا بعد مائة وخمسين عاماً رجال عقل وفكر وإرادة ، فقد تكفلت الصهيونية بهذا إذ نقلتنا نقلا من عالم أشباه الإنسان إلى عالم الإنسان ، وكان ذلك بمحض إرادتنا للتغلب عليها وإقصائها عن أوطاننا .

فاذا ترك الاستعمار بلاد الشرق فوضى وأهلها يحطمون بأيديهم ما بنوه واتهمنا بأنا نسير على غير هدى ونعمل تحت وحى تيارات الساعة ، ومصلحة الأحزاب وإيحاء صحافة هدامة ، فليطمئن دعاة الاستعمار وأذناب الصهيونية علينا : من هذا أو أكثر بعد اليوم .

ألا فليؤمنوا أن دروس الحقائق الكبرى التى ألقتها علينا الصهيونية فى فلسطين تعدل ألف درس مما ألقاه علينا الاستعمار الأوروبى . فإذا كنا لم نحطم الأصفاد والأغلال التى وضعتها أوربا يوماً فى أيدينا وأعناقنا فإن قضية فلسطين أصبحت جديرة بأن نكسبها ، وفى سبيل كسبها حطمنا الأغلال والأصفاد ووثبنا الوثبة التى لا يمكن أن ترد .

أتدرى ماذا علمتنا فلسطين ؟

علمنا الصهيونيون أن العلم قوة ثورية هائلة على الأرض ولهذا ملكتنا عقيدة الاقتدار والانتصار بالعلم .

نعم سيكون العلم فى حياتنا سلاحاً قاطعاً فيصلا لحل مشا كانا معهم .

لقد تعلمنا أن الظروف المحيطة بنا لا تخلق حسب أهوائنا حتى نحل متاعبنا طوع إرادتنا ووفق أهوائنا . وعلمتنا فلسطين كيف ندرس كل حالة ونتعرفها ، ونتعرف الشىء تكييفه بناء على طريقة منظمة وتبعاً لمنهج منطقى تحليلى . فالفضل لكم يا أهل صهيون ولأطماعكم إن أصبح الشرق قوة يحسب لها حساب .

لقد أخذنا عنكم أن المنهج هو القوة الوحيدة النهائية الفاصلة التى لا تحد والتى لا يمكن أن يثبت أمامها شىء فى الوجود أو تعترضها معضلة من غير أن تجد لها حلا ، لقد أخذتم عن الغرب روحه وعقله وأتيتم إلينا تطبقون هذا على أراضينا .

أما نحن فقد وقفنا نفكر علمياً ومنطقياً لندفع بالفكر العربى حتى يتعرف نفسه فى كل شىء ، وليبسط نفوذه ومضاءه وقوته

حتى نعيدكم إلى الأقطار التى جئتم منها :

إنكم دفعتم العرب إلى الثورة مرات قبل اليوم وكنتم تنظرون إليهم نظرة المتفرج ، أما اليوم : فستكون الثورة الكبرى فى هدوء ونظام تسير على برامج وتضبط فى المعامل وتقرن بالأرقام

ستكون ثورتنا وليدة المصائب التى حلت بنا ، وخاضعة للعقل الذى قيد كل ما فرطنا فيه فوضع الخطط لسنوات قادمة ولأجيال مقبلة

ولذلك سنجعل لكل يوم عملا كما يناسبه ، ولكل شهر كفاحاً يتفق مع مراميه ، ولكل سنة حرباً تتطلبها تلك السنة .

لقد جربتم حظكم معنا فى وقت لم نكن نفهم فيه أو ندرك شئون عالم يتطور . أما اليوم فاسمعوا واكتبوا ما أقول :

إننا سنتبع التفكير بالمنهج ، والمنهج بالحركة ، وسنعرف كيف نسيطر على الظروف ، لا بل كيف نستبق الزمن ونلين الطبيعة ونتعرف قوانينها وعلاقاتها بالأشياء ، لأننا سنلاقيكم اليوم وغداً وبعد غد ، وسترون أننا فى كل مرحلة سيكون التلاقى على صعيد أنسب لنا وأقرب إلى جعل النصر تحت متناول يدنا . وتلك سنة جديدة لنا لم تعهدوها فى الماضى عنا .

لقد طالما سمعنا كم ترددون : وماذا تصنع بلاد العرب التى تهدمها عوامل التفكك والانقسام ويؤخرها التشيع الذى يقتل جهودها ويقصى النافعين من أبنائها ، ألم تروا كيف تحكمت فيهم الأغراض والمساوىء : فأصبحت بلادهم ضعيفة مستأمنة خاضعة طائعة

ونحن الذين عانينا ما تقولون نؤكد لكم أن قتالكم فرض علينا ، وأن هذا القتال سيجعل من كل قطر عربى مجتمعاً منسجماً للوثوب ، فلن تتنابه بعد اليوم عوامل الهدم التى عهدتموها ثقوا أننا أخذنا أسلحتكم كما أخذتم عن الغرب أسلحته ، فالويل لكم منا بعد اليوم . إننا نسلم بأن فيكم رجالا كانوا قادة وبناة من الطراز الأول ، وأن هذا الوطن الذى تحاولون إنشاءه على نهر من الدماء هو من صنع تفكيرهم .

ولكن حلمهم لن يتحقق ، ولن تقسم البلاد العربية إلى شطرين الشطر الإفريقى والشطر الآسيوى ، هذا لن يكون أبداً . لأن منا رجالا قد أخذوا على أنفسهم العهود والمواثيق لكى يحولوا دون ذلك ، وهم من مدرسة جديدة لن تجدوا لها قبيلا فى منظماتكم . أتدرون كيف هم : إنى آتيكم بنبأ عنهم : هم قوم فيهم التضحية إلى أقصى حدود التضحية ، ولكن بغير نفسية الاستجداء والضعف ، حماستهم ثبات وهدوء ، ووقفتهم فى القتال رائعة ، سيقدمون البذل كفرض عليهم ، كما فرض المسلمون الأول الجهاد والتضحية والبذل على أنفسهم ولذلك لم يعرف عنهم أنهم ولوا الأدبار ؛ كذلك رجالنا .

نفوسهم عالية : يُعدون ويتعلمون ، يُدرِّبون ويُدرَّبون ، يحاضرون الغير وينصتون للغير ، ويُلقون الدرس ويتلقونه عن الغير . فيهم قوة الملاحظة وهدوء الأعصاب ، تلمس اليقظة مع الوعى فيهم ، وقوة الارادة مع التواضع ، ولذلك يسيرون إلى الموت بالتهليل والتكبير والفرح والغبطة : إنهم الطليعة الأولى .

أعرفتم أيام الإسلام فى فجره ؟ أعرفتم أنه بدأ غريباً وقامت قيامة الدنيا عليه ، فتغلب على الدنيا وقيامتها ، كذلك طلائعنا اليوم ستعيد أمجاد الطلائع الماضية : سيكون فيها المتحمسون والرواد والمحاربون والشهداء ، نعم نسير لننتصر ، ونموت لنحيا قلوبهم عامرة تشبه قلوب الطلائع الأولى ، ستأتى زرافات إليكم من الأرض والهواء والبر والبحر طلباً للشهادة فى الأرض المقدسة التى وعدنا بها . أليست أرضنا وبلادنا ومنزل الوحى عندنا ؟ فأين أنتم منا ؟

أحمد رمزى

دين الله واحد

لصاحب الفضيلة الأستاذ محمد محمد المدني



إن جميع الرسالات الإلهية التي أرسل الله بها الرسل لهداية الناس إنما يقصد بها أمران :

أحدهما : تقرير الواقع في شأن الألوهية وما يصدر عنها من إرسال الرسل ، وتنزيل الكتب ، والبعث والجزاء ...

والآخر : هو التدرج بالناس في مدارج الكمال ، ومدهم بالأحكام التشريعية التي تصلح بها أحوالهم ، وتستقر بها سعادتهم

ومن الطبيعي أن تتفق الرسالات كلها في الأمر الأول لأنه رجوع بالبشر إلى شيء متقرر ثابت لا يختلف باختلاف العصور والأحوال ، وأن ينحصر الخلاف في دائرة المناهج والشرع التفصيلية التي تتغير بتغير الزمان ، ويتدرج الإنسان في مراتبها بحسب أطواره وبيئاته ودرجة رقيه في العقل والتفكير . ولذلك كان « الدين » واحداً على لسان كل رسول بعث ، وكانت « الشرائع » مختلفة في تفاصيل الأحكام والتعبدات « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا »

وقضية اتحاد الدين على اختلاف الرسل قضية يقررها القرآن الكريم في كثير من المواضع ، ويكررها على أساليب مختلفة ، لتستقر في النفوس ، وتؤمن بها القلوب ، ويعلم الناس أنهم جميعاً على كلمة سواء ، وأنه لا مبرر للتفرق والتنازع والعصبيات .

يقول الله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصائبين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وهذه الآية تفيد أن أصول الدين ثلاثة :

١ — الإيمان بالله على وجهه الصحيح الذي بين في آيات أخرى ، بأن يشهد الإنسان أن لا إله إلا الله ، ولا يعبد إلا إياه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يوالي ولا يعادي إلا فيه ، ولا يعمل إلا لوجهه ...

٢ — الإيمان باليوم الآخر ، بأن يعتقد أن الله سيبعث الناس من الأجداث ليحاسبهم على ماقدموا من خير أو شر فيكافيء المحسن على إحسانه ، ويجزي المسيء بإساءته .

٣ — العمل الصالح الذي من شأنه أن يسعد المجتمع البشري ويزيل الشرور والفساد ، وينشر الطمأنينة والأمن ، ويمكن كل إنسان من أداء واجبه وأخذ حقه على وجه سليم لا يفضي إلى نزاع ، ولا يؤدي إلى ظلم .

هذه هي أصول الدين التي يتفرع منها كل ما سواها ، وقد تضافر رسل الله أجمعون على تبليغها ، وبذل كل واحد منهم في سبيل تقريرها والتمكين لها ما ملكه الله من جهد وآتاه من عمر ، وتلقوا عهداً من الله يبشر فيه سابقهم بلاحقهم . ويؤيد لاحقهم سابقهم ، وفي ذلك يقول الله عز وجل « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

والقرآن الكريم يسوق لنا قصص الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى أقوامهم فنجد الرسالة التي جاءوا بها تكاد تتفق حتى في الألفاظ التي تحدث بها كل رسول :

ففي سورة « هود » يقص الله علينا أن نوحا قال لقومه : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون » .

وأن صالحا قال لقومه : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » .

وأن شعيبا قال لقومه : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان » .

ويقص القرآن الكريم علينا مثل ذلك أيضاً في سورة الشعراء : يذكر نوحا وقومه فيقول : « كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ، إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله

وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين » .

ويذكر هودا وقومه فيقول : « كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون، إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين » .

ويذكر بهذا النص نفسه صالحا وقومه ، ولوطاً وقومه ، وشعيباً وقومه ، فيبين لنا أنه لا اختلاف حتى فى التعبير ، ولذلك يقول الله عز وجل : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة » .

وكما نجد هذه الوحدة فيما دعا إليه الرسل قد تناسقت حتى ظهرت فى الألفاظ والعبارات التى عُبر بها عنها ، نجد أقوام هؤلاء الرسل جميعاً يكادون يتفقون فى الرد على هؤلاء الرسل ومعارضتهم فى دعواهم ، وفى مقدمتهم السادة والكبراء :

فالملأ من قوم نوح يقولون : « ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادئ الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » .

ويصل الأمر بهم فى التحدى إلى أن يقولوا : « يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين »

وعادٌ يقولون لنبيهم « يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين » .

وقوم صالح يقولون له متهكمين : « يا صالح قد كنت فينا مرجوًّا قبل هذا ، أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب » .

وقوم شعيب يقولون ساخرين : « يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما كان يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد » .

ويصل بهم الأمر إلى أن يقولوا له : يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز » .

وهكذا تشابهت قلوبهم ، وتوافقوا على رفض الدعوة بأسلوب واحد ومعنى واحد ، ولذلك يقول الله عز وجل : « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون » ويقول : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ، أتواصوا به بل هم قوم طاغون » .

ومالنا نذهب هذا المذهب والقرآن الكريم يعلن فى كثير من الآيات وحدة الدين على نحو قاطع إذ يقول : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

ويقول : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما » .

بل يذهب إلى أبعد من ذلك فى التحديد والتوحيد فيعلن أن دين الله منذ كان هو « الإسلام » ، ولن يقبل الله سواه ، وأن الذين اختلفوا فيه من أهل الكتاب إنما كان اختلافهم بغياً وتجاوزاً وكفراً « إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ، فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

والإســـلام فى الأصل معناه الانقياد والخضوع ، وقد استعمل بهذا المعنى فى القرآن الكريم ، فكل من « أسلم وجهه لله وهو محسن » أى استسلم لأمر الله ورضى به وعمل صالحاً ، فهو فى نظر القرآن مسلم ، ولذلك جعله الله مقابلا للشرك فى مثل قوله : « قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاء فى البينات من ربى وأمرت أن أسلم لرب العالمين » وجعله مقابلا للكفر فى مثل قوله « أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » كما وازن بين المسلمين والمجرمين فى قوله : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين » ووصف الدين القويم بقوله « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن » والقول القويم بقوله « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » وتحدث عن عباده المؤمنين الذين سيدخلهم الجنة يوم القيامة من سائر الأمم بقوله « يا عباد لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون » .

وقد جاء فى القرآن الكريم وصف كثير من الأنبياء ومن أرسلوا إليهم « بالإسلام » : فنوح يقول : «وأمرت أن أكون من المسلمين » وإبراهيم وإسماعيل يدعوان ربهما قائلين « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » ، ويقول الله لإبراهيم : أسلم فيقول : « أسلمت لرب العالمين » ويصفه الله بأنه « كان حنيفاً مسلما » ، ويوسف يدعو ربه فيقول « أنت ولبى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » ، وسليمان يكتب إلى أهل سبأ « أن لا تعلوا على وأتونى مسلمين » ويقول لقومه « أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين » وملكة سبأ تقول : « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » وموسى يقول لقومه «يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين» وفرعون حين يدركه الغرق يقول « آمنت بالذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » وقد وصف الله قرية لوط بقوله « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » وقص علينا فيما حكاه عن الجن أنهم يقولون : « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً » .

بهذا كله يتبين أن « الإسلام » على لسان هؤلاء جميعاً، وفى هذه الاستعمالات كلها ، هو الانقياد لله والخضوع له فى العقيدة والعبادة والعمل خضوعاً لا يعرف الشرك ولا الواسطة ، ولهذا يعتبر الله جميع الأنبياء وجميع الذين أوتوا الكتاب مسلمين بهذا المعنى فيقول عن الأنبياء « يحكم بها النبيون الذين أسلموا» ويقول عن أهل الكتاب « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين» ويقول عن الذين كفروا بعيسى وزعموا أن ما جاء به من البينات سحر « ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام » ...

ولهذا أيضاً يقول القرآن الكريم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم : « إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين » .

ويأمر المسلمين أن يقولوا « آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

ويأمر بتوجيه الدعوة إلى أهل الكتاب على هذا النحو فيقول « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

هذا هو دين الله الذى جاءت به كل الرسل ، ونزلت به كل الكتب ، وقد كان دين محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتمة هذه الرسالات كلها ، وهو الذى أثبتها ، ولولاه ما عرف أمر رسول عن طريق تطمئن إليه القلوب ، وهو الذى نقاها مما أضيف إليها ، ولولاه ماعرف صحيح من زائف ، وهو الذى أتى بالشرعة الصالحة المناسبة لما وصل إليه الإنسان من رقى فى العقل والتفكير والمعرفة ، ولولاه لظلت البشرية تتخبط فى ظلمات الأهواء والشهوات والعصبيات ، ولهذا كله تمحض معنى الخضوع لله والانقياد لأمره على ما رسم لعباده فى دين محمد صلى الله عليه وسلم فصار لفظ « الإسلام » علماً عليه ، وأنبأنا الله أنه هو الذى ارتضاه بقوله فى أواخر ما نزل على الرسول « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » فلم يعد لأحد من البشر بعد ذلك أن يرفضه زاعماً أنه مؤمن بسواه ، فإنه هو الدين وليس له « سوى » ، ومن آمن به فقد آمن برسالات الله كلها ، ومن رفضه فقد رفض رسالات الله كلها ، تلك هى الحقيقة ولن يستريح أهل الأرض حتى يؤمنوا بها ، ويبنوا حياتهم وعلاقاتهم على أساسها « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » .

محمد محمد المدنى
المدرس فى كلية الشريعة

ضاق هذا العدد عن طائفة من المقالات القيمة فاضطررنا إلي إرجائها للعدد المقبل

ويحكم هبوا!

للأستاذ محمود محمد شاكر



أيها العرب ! أيها المسلمون ! إنكم لا تغلبون اليوم عن قلة ، ولئن كتب الله عليكم أن تغلبوا فإنما تغلبون بإثم ما اقترفت نفوسكم، وما اجترحت أيديكم ، وما فرطت عقولكم، وما نسيت قلوبكم ، وما أضعتم من حق تؤدونه لأنفسكم وأسلافكم وذريتكم ، ووالله ما أراكم تغلبون عن جهالة ، فقد وهبكم الله عقولا راجحة ، ونفوساً حرة ، وعزائم قد أذلت لكم أعناق الأمم منذ كان لكم في الأرض شأن يذكر .

وإن الله مبتليكم بمحنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة ، بل هي محنة لعامتكم وخاصتكم في نواحي الأرض ؛ فإن أحكمتم الرأي وصدقتم العزم ، وعرفتم عدوكم من صديقكم — ولا أرى لكم في هذه الدنيا صديقاً — فقد آن لكم أن تنهجوا للبشرية منهجاً مستقيماً وصراطاً سوياً . فلا تقولوا إنا نحن ضعفاء ، فالضعيف من ظن في نفسه الضعف وإن كان أقوى الأقوياء ، ولا تقولوا إنا نحن جهلاء ، فالجاهل من استهزأ بالعلم وتهاون في طلبه وإن كان أعلم العلماء ، ولا تقولوا إنا نحن فقراء ، فالفقير من جهل أن الله قد آتاه العزم والجلد والعقل ، وإن كان أغنى الأغنياء . فاصدقوا أنفسكم واتقوا بالله الذي امتحنكم بهذه المحنة ، فإنه ناصركم على عدوكم ، ومخرج لكم من خبء أنفسكم خيراً كثيراً قد غاب عنكم وعن الناس دهراً طويلا . وإياكم والخوف ، فإنه الآفة المتهمة ، وما استشعر الخوف عزيز إلا ذل ، ولا قوى إلا خار ، ولا أبي إلا تفرع لكل خسف يراد به .

انظروا ! فهذه فلسطين قد اجتمعت الأمم على أن تمكن فيها لأنذال يهود مكاناً يتبوأه طغاة المال وطواغيت الفجور وأبالسة الشر ، وقد أخذوا يمدونهم بالمال والسلاح ليقهروكم وتكون لهم الكبرياء في هذه الأرض .

وانظروا ! فهذه دولة الباكستان قد اجتمعت فيها كلمة المسلمين على أن يكونوا أمة عدتها مئة مليون ، فإذا عباد البد (بوذا) قد دمروا عليهم من كل مكان يذبحونهم ويقتلونهم ويفتكون بالنساء والأطفال ، ويهتكون أعراض الحرائر ، ويدخلون على المصلين في مساجدهم فيضمون السيوف في رقابهم والخناجر في ظهورهم ، ويقتالون الآلاف من الآمنين ، والدنيا كلها تسمع وتبصر ، فلا تجد فيهم منكراً ولا مستبشعاً ولا معترضاً على ضراوة عباد البد .

وانظروا ! فهذه أندونيسيا تجمع هيئة الأمم المتحدة على تركها فريسة للطغاة البغاة من شر ذمة الخلق الذين يسمون بالهولنديين ، ويزعمون لكم أن مجلس الأمن قد أمر بوقف القتال ، فإذا هولندة تضرب صفحاً عن حكم هذا المجلس ، وتوغل في تقتيل هؤلاء المساكين بالنذالة المعهودة في المستعمرين الذين لا يفرقون شيئاً بين هؤلاء البشر وحيوان الغاب ، بل لعلهم بحيوان الغاب أرحم ، وعليه أحرص ، إبقاء على جلده أو فروه مما يرتفقون به في صناعة أو تجارة .

وانظروا ! هذه بلاد المغرب من حدود مصر إلى أطراف المغرب الأقصى قد ضربت عليها فرنسا بالأسداد ، وحمت عنها كل بارقة من خير ، وسامت أهلها عذاب التقتيل والاضطهاد ، وسلبتهم كل قوة تتيح لهؤلاء الأبطال الصناديد أن يعيشوا في بلادهم عيشة الكفاف ، وشردت كل من دعا قومه إلى المطالبة بالحق المغصوب ، وأرادت أن تجعل هذه البلاد الشريفة ذيلا ملحقاً بالجمهورية الفرنسية .

وانظروا ! فهذه مصر والسودان قد فغر لها الوحش البريطاني يريد أن يقضم السودان قضمة واحدة ليجعله قطعة من أوغندة وجنوب إفريقية ، ويدع مصر ترعة إن شاء منع عنها الماء حتى يقتل أهلها جوعاً وظمأ ، وقد قضى في ديارنا أكثر من خمس

وستين سنة حتى هدم كيانها . وسلط عليها لصوص الأجانب واليهود ، حتى ما تكاد تجد مصر حيلة فى سن القوانين التى تحمى بلادها من استبداد اللص الطارىء بصاحب البلد القيم .

انظروا لكل بلد تنطق فيه العربية ، أو يذكر فيها اسم الله مقروناً باسم محمد صلى الله عليه وسلم ، تروا حرباً تشن على أهل العربية والإسلام بلا هوادة ، وبأوقح الأساليب وأخفاها :

أيها العرب ! أيها المسلمون !

إنها الحرب . إنها الذابح ! إنها الحالقة التى أجمعت أمم أوربة وأمريكا أن تستأصل بها قوتكم وتجعلكم عبيداً أذلاء فى أرض الله . إنها الفتن المظلمة التى أطبقت عليكم من كل مكان ، فجعلت فيكم رجالا ونساء وخلقاً كثيراً صاروا عدواً لأنفسهم وبلادهم وإخوانهم ، جهلا وعناداً وتقليداً وسوء رأى .

إنه لم يبتل قوم فى تاريخ هذه الدنيا بمثل ما ابتليتم به ، فقد مضت القرون وأنتم فى غفلة عن عدو قد استفحل أمره واستوت قوته واستمر مريره ، فدخل عليكم بلادكم فاستعبدكم فيها وحاربكم بعلمه وجهلكم ، وقوته وضعفكم ، واجتماع كلمته وتخاذلكم ، فلما أفقتم من الغفوات الطويلة لم تجدوا فى أيديكم مالاً ولا سلاحاً ولا علماً ، فليس لكم منذ اليوم إلا الشىء الذى هو أقوى من المال والسلاح والعلم : الإيمان بحقكم ، والصبر على لأواء هذه الحرب الضروس . فآمنوا واصبروا ، فإن قوة الإيمان وحدها تدمر حصون البغى ، وتدفعكم إلى طلب المال والسلاح والعلم ، وتطهر قلوبكم من كل ضعف ؛ ولا تأسوا على قتيل فى هذه الحرب ، فإن كل دم يراق من دمائكم إنما هو غيث تغاثون به يغسل عنكم أدرانكم ، ويسقى ثرى جف ، فينبت لكم أبطال الوغى وصناديد القتال فى كل ميدان من ميادين هذه الحرب .

أيها العرب ! أيها المسلمون !

اطلبوا المال من وجوهه ، ودبروا أمركم فى حياتكم ، فإن المال قوة غاشمة تضارع أقوى قوى الطبيعة التى لا يقف دونها شىء . واطلبوا السلاح من حيث استطعتم ، فإن السلاح ناصر من لا ناصر له إلا قوته ، فأنشئوا المصانع والمعامل وأخفوا أمركم حتى لا يطلع عليه العدو الذى يعيش بين ظهرانيكم من الأجانب واليهود . واطلبوا العلم حيث استطعتم ، فالعلم حياة ابن آدم ، لا حياة له بدونه ، وهو عون المال والسلاح والحافظ عليهما والقائم بأمرهما . وكل طالب علم فهو مجاهد فى سبيل الله وفى سبيل أهله وبلاده ، فلا تفتروا عن طلبه . وليعلم كل طالب علم أو مال أو سلاح أنه إنما يفعل ذلك لأمرين : أولهما تحقيق معنى الكرامة الإنسانية ، والآخر تحقيق الحرية لبلاده وأمته .

أيها العرب ! أيها المسلمون !

لست أكتب لكم لتقرأوا ، ولكنى أنذر قومى فى ساعة لا ينبغى للمرء فيها إلا أن يصدق أهله . أنذركم بعداوة الأمم لكم ولمجدكم وتاريخكم ، فربيوا لهم أضغانكم وغذوها وحوطوها ، ونشئوا صغاركم على بغض هذه الأمم التى حشدت لكم عصبية الجاهلية ، وعصبية الصليبية ، وعصبية الاستعمار ، وعصبية الألوان . أرضعوا كل مولود لبان الأضغان والأحقاد على هؤلاء الطغاة ، وأمروهم أن يعيشوا فى هذه الأرض لشىء واحد هو أن يقاتلوا أهل البغى والعصبية حتى تستأصلوا هذه الشأفة الخبيثة من أرض الله التى أورثهم إياها قائمين بالقسط والعدل والرحمة وإيتاء كل ذى حق حقه . وإنه لا ينجيكم من هذه البلية إلا أن تتمرسوا بصدق العداوة ، فهى التى توقظ فيكم كل عزيمة غافلة ، وتهديكم إلى مواطن الضعف فى نفوسكم ، وإلى مكامن الغدر فى نفوس أعدائكم ، ومن جهل مواطن الضعف فى نفسه كان خليقاً أن يصاب منها ، ومن عمى عن مكامن الغدر فى نفس عدوه كان قميناً أن يرتكس فى مهاويها . لقد فضح الصبح أعداءكم وأضاء لكم عن خبايا قلوبهم ، فلا يكن أمركم عليكم غمة ، فأنتم بين اثنتين : إما المكاشفة بالعداوة السافرة فى غير مداورة أو سياسة ، وإما أن ترضوا لأنفسكم أن تصيروا طعمة لهذه الأمم الباغية على الشر ذمة اللئيمة من إسرائيل . وما أظنكم ترضون الثانية ، فليس لكم إلا الأولى .

أيها العرب ! أيها المسلمون !

لقد انقضت دهور وأنتم تساقون إلى قدر لا يعلم غيبه إلا الله ، فاستبد بكم قوم أولى ضرار وبأس شديد ، فأفسدوا قلوب جمهرة من أبنائكم وذراريكم ، فنشأت تحت ظلال هؤلاء الطغاة ناشئة من أنفسكم تعاظم أمرها ، وصار لها فيكم مكانة تتبوأها ، وكل ذى مكانة أو سلطان أو ثروة فهو ملىء بأن يخدع الجماهير ، وهم أسرع إلى طاعته ومتابعته فيما يخدعهم به ؛ فاحرصوا على ألا تتبعوا الرجال على أسمائها بل اتبعوا الهدى وإن جاءكم على يد

المحتاج الراغب ، وتبينوا الدليل عليكم من الناصح لكم . ولا تقولوا هؤلاء سادتنا وكبراؤنا ، فما أضل البشر إلا سادتهم وكبراؤهم . ولا ترددوا إن رأيتم معوجاً أن تقوموه مهما بلغ من الشأن ، فإن تقويمكم إياه أبقى له وأجدى عليه . ولا تخروا على آراء السادة والكبراء صماً وعمياناً ، بل اسمعوا نبضات القلوب ، فرب لسان ينطق بالخير وهو ينبض بما فيه فسادكم وفساد أمر بلادكم . وأبصروا وتبصروا ، فإن لا يعطى القيادة إلا السائمة التى تقودها عصا الراعى لا العقل والإدراك . احملوا سادتكم وكبراءكم على وضح الصراط ، فكل ضال منهم سوف يضل خلقاً منكم كثيراً ويورده موارد الهلاك .

أيها العرب ! أيها المسلمون !

إنها ساعة فى تاريخكم ليس بعدها إلا النصر أو الهزيمة ، وكل امرئ منكم يحمل تبعة لا يسقطها عنه عذر ، ولا يعذره أداء حقها شىء . وأنتم أربعمئة مليون نسمة لا عصابة قليلة فى الأرض ، فإن كنتم صفاً واحداً وبنياناً مرصوصاً ، فاعلموا أنه لن يغلبكم شىء ، ولن تهد هذا البنيان قوة مهما بلغت على ظهر هذه الأرض ، فتماسكوا وتقاربوا وتعاونوا ، ولا تدعوا ثغرة يدخل منها عليكم عدوكم لينقض هذا البنيان الذى بناه آباؤكم وأسلافكم فى آلاف السنين ، وأنتم الأعلون إن شاء الله ، وليهود الذلة والمسكنة مضروبة عليهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أيها العرب ! أيها المسلمون !

لا تهابوا أهل العصبية الصليبية فى أمريكا وأوربة ، ولا تثقوا بأحد منهم ، ولا تهادنوهم فى حقكم ، ولا تناصروهم كما ناصرتموهم من قبل فغدروا بكم وتألبوا عليكم وامتهنوكم وقابلوا حقكم بالازدراء والتحقير فى هيئة الأمم المتحدة ، وأنكروا كل يد أسديتموها إليهم ، ومزقوا أوطانكم ، وسلطوا عليكم فواجر أممهم ، وأرادوا أن يدمروا أوطانكم ، وأن ينشئوا لجرائم اليهود وكراً خبيثاً فى الأرض المقدسة فى سرارة بلادكم . فإن فعلتم فيومئذ يعلم هؤلاء الأخباث والأشرار أن العرب وأهل الإسلام وأهل دين المسيح فى الشرق ، كلهم على قلب رجل واحد يريدون أن يقيموا فى هذه الأرض شريعة الإنسان العادل لا شريعة الوحش الضارى فى ظلمات الأدغال والغابات .

يا ساسة العرب !

إياكم وخداع الناس ، ولا تخادعوا ربكم الرقيب عليكم ، فيوشك أن يحل عليكم غضب من ربكم ثم غضب الناس عليكم ، ولا تبيعوا تاريخكم وتاريخ آبائكم وذريتكم بعرض زائل ومجد مزيف ، واعلموا أن قومكم قد ثاروا من مضاجعهم ليطلبوا حقهم بحد السيف ، فلا تكونوا مخذلين ولا واعظين ولا متهاونين . واعلموا أيها العرب ! شذاذ الأمم وصعاليك اليهود بين ظهرانيكم ، والبغاة الطغاة عن أيمانكم وعن شمائلكم يلتمسون الفرصة ليمحقوا العرب والمسلمين ويطحنوهم طحناً .

فهبوا جميعاً إلى الجهاد فمن نجا فقد فاز بالنصر ورضوان الله عليه ، ومن قتل فقد فاز بالشهادة وجنة الخلد والذكر الذى لا يفنى . « كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

محمود محمد شاكر

يا شرق!

للأستاذ محمود الخفيف

« مهداة إلى أديب العربية الكبير الصديق الكريم الأستاذ النشاشيبي »



يهتف بالأمن وفي روحه ... أنشودة الذرة تلقى الحمام
والأرض أشلاء ترى هاهنا ... وتلك أطلال وهذا حطام!

مهزلة يلهو بها الأقوياء ... يخجل منها اليوم حتى الرياء
حبالة القانص كم أوقعت ... في الشرك الأغفال والأذكياء
كم بشر الأرض بآماله ... مبشر حتى جرت بالدماء

يا شرق كم غرتك بيض الوعود ... ألفتها حتى ألفت القيود
تخطر في القيد على ذلة ... تلوك في الأغلال مجد الجدود
إهنأ بماضيك وفاخر به ... ولُكْهُ يا مسكين حتى يعود!

يا ظامئاً يطلب ماء السراب ... إشرب على الغلة مر العذاب
يا حالماً أغراه طيب الكرى ... أبشر مع الصبح بسوء المآب
يا لاهياً ويك أما تتقي ... الناب والمخلب طبع الذئاب

قومك بالموت أعزوا الحياه ... وأفزعوا بالبأس بغي الطغاه
في السيف والمصحف برهانهم ... تعنو له في العالمين الجباه
لا السيف ظلام عتي ولا ... يروع المصحف عات عصاه

فاوت بين الناس خوض الردى ... يا شرق هل أصرخ ابن الفدا؟
ردوا فقد جد بكم دهركم ... أو فارتضوا الخسف لكم موردا
ما من قلوب ألفت قيدها ... إلا غدت تعبد من قيدا

ما شاء فليسخر بي الساخر ... بالغرب، ماعشت، أنا الكافر
يزيدني الحق جحوداً به ... ما زور الحق به فاجر
إلا نجوماً فيه رجافة ... يكاد يخفي لمحها الحائر

ما غده؟ هيهات يرجى غد ... من أمسه مات الذي يحمد
والحاضر الكافر يا هوله ... يا سوء ما يطغى وما يجحد
للشر في الأرض على رحبها ... في كل ركن آمن مرصد

دنيا من الأكول والآكل ... لا شيء من حق ولا باطل
الغابة اللفاء دينهم ... فالعيش للفاتك والخاتل
يا ويحهم هذا الذي بشروا الـ ... ـعصر به من بشر كامل!

الدين حيران الخطى هائب ... مروع في برده شاحب
والعلم شيطان سمي سميه ... مشمر عن هوله دائب
والرحمة السمحة مذعورة ... من كل صوب حولها ناعب

يا عجباً وهو ألد الخصام ... يردد الإنسان لحن السلام

دين العلا إن كنت لا تعلم ... دينك يا ابن الشرق يا مسلم
دينك بين الناس سوى فما ... بالك للطغيان تستسلم؟
دينك إن عدت لأحكامه ... حكمت لا دنت لمن يحكم

عقيدة دينك لا تغلب ... لا تعرف البطش ولا ترهب
شريعة خالدة فصلت ... دستورها الخالد لا يسلب
روح من الله سماوية ... شرقية المطلع، لا تغرب

يا شرق حتام تلوم القدر ... ولا تني ترنو إلى من غبر؟
أنت الملوم اللائم المشتكي ... كم صرخت حولك شتى العبر
رضيت، لو أنكرت ما تشتكي ... منه، تهاوى عمره واحتضر

إلام يا شرق حياة الجسد ... في ذلها طال عليك الأمد
يا موطن الروح أما هزة ... تشمل من أرواحنا ما خمد؟
ويحك يا عاني أما غضبة ... لشد ما تذعن إذ تضطهد!

يا أمة تهضم أوطانها ... ولا يني يمرح فتيانها

أترتضون الذلَّ ؟ ما خطبكم ... ذات نفوس مات إيمانهـا
تالله ما البعث سوى رجفة ... يُمحصُ الأنفسَ بركانهـا

وا أسفا كل حمى مستباح ... هيض الحمى منذ فقدنا السلاح
يا فتيـة الشرق ألا خالدٌ ... وقد تداعى قومنا ، أو صلاح ؟
حِطّينُ هذا وقتها فاحشدوا ... أبطالكم ، هذا أوان الطماح

أما يهـز الشرق بغيٌ عتا ... بعد خفاه سـيفـهُ أصلتا ؟
الطمع الغاصبُ بـدا له ... كلٌّ فـؤاد لؤمه أعنتا
متى أرى الشرق لظى حوله ... وبلاه ! كم تلهبُ صدرى متى !

أيةُ نار أوقد الطامعُ ... وأى بغى ذلك الدافـعُ
ما أوضعَ الإنسانَ أن لم يعد ... فى نفسه عن غيلة وازع
بيعت فلسطين فيا موطنا ... فى عـلن غاصبـهُ البائع !

بيعت وما أعجب بيع الشعوب ... فيما وعى التاريخ أدهى الخطوب
سوق بها السواس كم زاولوا ... نخاسةً هانت إليها الحروب
كم أعتم الغربُ وفى أفقه ... كم بهر الأبصار برقٌ كذوب!

قائمةٌ من عهدها الأسـبق ... حربُ الصليبيين فى الشرق
لم يفتر الغربُ ولم يألنـا ... من حربه أو كيده المرهق
لا تـلم الغرب على بغيه ... اللوم للمستسلم الـموثق

اللـوم للجاثم فى كنّه ... فى ميعة القوة من سنّه
يضنُّ بالمـال على وفرة ... ويرتضى الأغلال فى ضنّه
إن شحَّ بالمال أما حفنةٌ ... للغاصب الواغل من ضغنه ؟

باع فلسطين حماة الأمم ... أهـل المواثيق رعاة الذمم
الكاشفون الضرعن أرضنا ... حين تفشى الناس فيها الظلم
الكارهون البغى من أنقذوا ... بالنار حرياتهم والقـلم !

بالذهب الباغى اشترتها يهود ... وعصبةُ الأمن عليها شهود
الأمنُ ؟ ما الأمنُ سوى غاية ... تُنمى إلى أحلام هذا الوجود
قل لرُعاة الأمن سُحقاً لكم ... النارُ لا تلقوا إليها الوقود !

عز يهوذا حول قبر المسيح ... غداً له فى الشرق ملكٌ فسيح
آه من المـال به الباطل الـ ... ـلجلجُ إذ يهوى مبينٌ فصيح
بالمال كم جادوا وكم آكل ... للسحت فيهم أشعبيٌّ شحيح

فى الأرض ملعونون ما طوفوا ... كم بخسوا الكيل وكم طففوا
فى كلِّ رُكن للربا آكلٌ ... باغٍ وفى كل حمى مصرف
تالله لن يفلح كيـدٌ لهم ... ما أشعلوا الفتنة أو أرجفوا

قل لبنى الشرق من واجد ... يبكى ومن مستصرخ جاهد
قـل لرعاة الشرق من علية ... تشاوروا فى مجلس حاشـد
خوضوا المنايا الحمر أوفانعدوا ... ما من طريق غـيرها قاصد

صبوا على النار هناك الدما ... لا تبتغوا غـير الردى مغنما
جـد العدو اليوم فى بغيه ... فأطفئوا النار التى أضرما
من دمكم إن صال أعداؤكم ... وصمموا فالحر من صمما

يا ابن الكماة الغر جـدَّ الزمن ... واستصرخ اليوم بنيه الوطن
يا ابن الأولى النجدة كانت لهم ... ديناً وكانوا عصبة فى المحن
أفق على الصيحة طال الكرى ... شرٌ من الأجداث هذا الوسن

فى الأفق الشرق لون الدم ... منورٌ بعـد الدجى المعتم
أفق على الإصباح وانشد له ... لحناً إلى مجد الردى ينتمى
وانهض إلى الموت وخض لجه ... مبتسما فى وجهـه الأقتم

عبد الله بن عباس

للدكتور جواد علي

لم يكن فى طبع عبد الله بن عباس ميل إلى السياسة . فلم يشترك فى إدارة شؤون الدولة الإسلامية الحديثة ، ولم يترأس حزباً من الأحزاب السياسية ، ولم يتول منصباً من المناصب الكبرى خلا مرة واحدة تولى فيها منصب إمارة البصرة فى عهد خلافة ابن عمه على بن أبى طالب فى سنة ٣٩ للهجرة — ولعله فعل ذلك إرضاءاً لإبن عمه — غير أنه لم يبق فى منصبه هذا غير عام ثم اعتزل السياسة وقفل راجعاً إلى الحجاز حيث اعتكف فى « الطائف » لسبب لا زال موضع بحث فى كتب التاريخ .

وقد عاش فى الحجاز قرابة ثلاثين عاماً على غلة أملاكه الكثيرة حتى توفى بالطائف عام ٦٨ أو ٦٩ أو ٧٠ للهجرة(١) وقد زار فى خلال هذه المدة بلاد الشام فوفد على معاوية وتحدث إليه(٢) ولكنه صرف أكثر هذه المدة فى الحجاز فى دراسة الموضوعات العلمية ولاسيما ما يختص بتفسير القرآن وأخبار الأوائل وأيام العرب(٣) . وقد بعثت هذه الدراسة نشاطاً عظيما فى عاصمة « الثقفيين » حولت إليه الأنظار . فجاءت إلى « الطائف » جماعات تلتمس العلم من « الحلقة » التى كونها ابن عم الرسول ومن المدرسة التى أنشأها فى الطائف فغدت بعد مدة قصيرة أكبر مدرسة « للتفسير »(٤) .

ولم يشترك ابن عباس فى العهد الأموى فى الأحداث السياسية التى وقعت فيما بين الأمويين وخصومهم . ووقف من كل ما حدث موقف رجل محايد ناصح . فكان ينصح من تحدثه بالخروج على الأمويين بالتروى وعدم الاندفاع . ولما وقع الخلاف بين عبد الله ابن الزبير وعبد الملك بن مروان وجد الحكمة فى العزلة والابتعاد

(١) Ency of islam. Vol 1. P 20 .

(٢) المسعودى . مروج الذهب ج ٢ ص ٥٢ (طبعة المطبعة البهية) .

(٣) طبقات ابن سعد ج ٢ قسم ٢ ص ١١٩ — ١٢٤ ، ابن الإصابة ج ٢ ص ٨٠٢ — ٨١٣ ، النووى (طبعة وستنفلد) ص ٣٥١ — ٣٥٤ Nöldeke Gesch qoran Bd 2 s 134.

(٤) Nöldeke qoran Bd 2 s 163 .

عن الناس واتباع سياسة الصمت والسكوت فكان إذا سئل فى موضوع سياسى يقول : يا لسان قل خيراً تغنم ، واسكت عن شر تسلم ، فإنك إن لم تفعل تندم(١) . وقد أوقعته هذه السياسة عند البعض فى مواطن الشبهات فقالوا إنه كان على اتصال خفى بمعاوية الذى أغدق عليه الأموال وبالأمويين ؛ وأنه تفاهم معهم وأيد جانبهم بهذه السياسة(٢) . وقد صادفت هذه التهمة هوى فى نفوس بعض المستشرقين فاتخذوها مغمزة للكيد للمسلمين .

والحقيقة أن هذه السياسة التى اتبعها عبد الله بن عباس تمثل وجهة نظر فريق أدرك أن من العبث مقاومة الأمويين وأن من الخطأ الانحراف فى تيارات السياسة وفى الفتن التى ظهرت بعد وفاة الرسول ؛ فاتبعوا سياسة « العزلة » ورأوا فيها خير وسيلة من وسائل النجاة . وقد قويت هذه النظرية بعد المعارك الإسلامية التى وقعت فيما بين المسلمين فأصبحت مبدأ من المبادىء القوية ذوا قواعد وأحاديث وأتباع ورجال يدعون إليه ويبشرون .

ومن الذين فضلوا العزلة واجتنبوا الأحزاب سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر ، وكان ينهى ابن الزبير عن طلب الخلافة والتعرض لها كما نهى آخرين عن الخوض فى السياسية والانهماك بها ، إلا أنه لم يؤيد جانب الأمويين ولم يبدأ رأياً فى سياسة(٣) فترك الأمور تجرى فى مجاريها إلا ما كان يخص مبدأ من مبادىء الأخلاق أو الدين .

وقد كان من مصلحة الأمويين بالطبع إعراض الناس عن السياسة والانصراف عن التفكير فى الملك ولا سيما إذا كان ذلك من الأسر الرفيعة والبيوتات ومن أهل الحرمين ؛ ولذلك حاول الأمويون مراراً بذل الأموال فى المدينة ومكة وتعويد الناس على عيشة البذخ والراحة والتلذذ بملاذ الحياة الناعمة وفى ذلك ضمان فى صرف السادات عن التفكير فى الحكم . ولو أن هذه السياسة لم تنجح ولم يتمكن الأمويين مع ذلك من تحويل أهل المدينة عن التفكير فى مصير الحق والناس .

ولقد كان من مصلحة الأمويين أيضاً أن يذاع فيما بين الناس بأن كل ما حدث إنما حدث بحكم الله وقضائه ، لأن فى ذلك تثبيتاً لمركزهم وتأييداً لحجتهم ؛ فإذا كان الله قد قضى ذلك فلا مرد لحكمه

(١) ابن كثير الشامى ج ٨ ص ٣٠٦ .

(٢) Nöldeke qoran Bd 2 s 164 .

(٣) العزلة للامام أبى سليمان أحمد بن محمد الخطابى البستى المتوفى سنة ٣٨٨ . ١٩٣٧ ص ١٨ وما بعد .

ولا قوة تمكن الناس من زحزحتهم عن الحكم . وإذا كان الله قد قضى أن يكونوا ملوكا فله حكمه وعلى الناس الصبر والانتظار.

على كل حال فقد أوجد عبدالله بن عباس فى مدينة الطائف جواً علمياً وكون مدرسة حقيقية بفضل هذه النزعة الفلسفية التى كان يميل إليها منذ صغره فكان « يجلس يوماً لايذكر فيه إلا الفقه ، ويوماً لا يذكر فيه إلا التأويل ، ويوماً لا يذكر فيه إلا المغازى ، ويوماً الشعر ويوماً أيام العرب(١) » . وقد التفت حوله جماعة من طلاب العلم كانت تتلذذ بالاستماع إليه . فكان يجيبهم ويسألهم ومن هذه المناقشة العلمية يتولد منهج البحث .

ولم يجد عبد الله بن عباس شأن سائر علماء الصحابة غضاضة من الأخذ عن أهل الكتاب أو عمن أسلم منهم . مثل « كعب الأحبار » و « عبد الله بن سلام » وإن كان قد حذر منهم ونهى من لا علم له عن الأخذ عنهم لما اشتهر عنهم من الوضع والدس « لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء(٢) » « ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم(٣) » . ويظهر مما ورد فى الكتب أن ابن عباس كان قد سأل « كعب الأحبار » عن مسائل كثيرة منها ما يخص المسائل الإسرائيلية ، ومنها ما يخص القضايا الإنجيلية ، ومنها ما يخص مسائل تفسير القرآن الكريم(٤) وحتى فى القراءات(٥) ، كالذى ورد من أن ابن عباس اختلف مع عمرو ابن العاص فى قراءة (لدنى — أو لدنى) فذهبا إلى كعب الأحبار لتسوية ذلك الخلاف(٦) .

وإذا دققنا هذه الأخبار والروايات التى ذكرها الرواة عن ملاقاة ابن عباس لكعب الأحبار تدقيقاً علمياً فإننا سنخرج من هذا البحث ونحن غير مطمئنين من وقوع هذه الملاقاة . ولا نستطيع أقوى رواية تأكيد رؤية عبد الله لكعب الأحبار(٧) . وعلى الرغم من تأكيد الرواة من أن عبد الله وأمثاله من كبار المسلمين كانوا يلجئون إلى كعب وأمثاله فى مسائل كثيرة إلا أنى لا أستطيع أن أسلم بأكثر ما رووه وما ذكروه عن عبد الله بن

(١) ابن كثير ج ٨ ص ٣٠٥ ، الشعرانى طبقات ج ١ ص ٢ .
Nöideke qorans Bd 2 P 164

(٢) البخارى ، شهادات ٢٩ ، الاعتصام ٢٦ ، المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ترجمة على حسن عبد القادر ص ٦٦ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) الطبرى ج ١ ص ١٧٧ (٥) المذاهب الإسلامية ص ٦٧ .

(٦) صحيح الترمذى ج ٢ ص ١٩٣ .

(٧) Nöldeke goran Bd 2 s 165 .

عباس وصلاته بمن أسلم من أهل الكتاب .

وقد زعم جماعة من المستشرقين استناداً على بعض الأخبار أن عبدالله ابن عباس كان يجالس يهود الحجاز ويتحدث إليهم ، وأنهم كانوا يزورونه فى بيته ، وأن ما رواه عن الخليقة والتكوين والأنبياء هو من وحى هذه المجالسات . وقد فاتهم أن الخليفة عمر ابن الخطاب كان قد أمر فى خلافته بإجلاء جميع أهل الكتاب لأنه لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب ؛ فكيف يمكن مجالسة اليهود لعبدالله بن عباس فى بيته بالطائف أو اجتماعه معهم فى الحجاز

والظاهر أن هذه الأخبار إنما دخلت على ابن عباس ، وأن الذين أسلموا من أهل الكتاب ، والذين اجتمعوا به قد استغلوا فرصة اجتماعهم به فأدخلوا ما أرادوا إدخاله باسم عبدالله بن عباس ، وقد وجدت أرضاً صالحة فى العهد العباسى لأسباب سياسية اقتضتها مصلحة الدعاية فى ذلك العهد ظناً من ساسة ذلك العهد أن فى رواج هذه الأخبار زيادة فى منزلة جدهم الذى كان يجادل أهل الكتاب وينتصر عليهم ويفسر لهم أخبار كتبهم وأمور دينهم ، ويروى لهم ما فى التوراة والإنجيل . وقد اقتضت مصلحة السياسة فى ذلك العهد وضع أحاديث كثيرة حتى على لسان الرسول فى الثناء على هذه الدولة وعلى أرض بغداد وفى التبشير بملامح بعض الخلفاء .

وقد تمكن من أسلم من أهل الكتاب من تكوين دعاية طويلة عريضة فصوروا فى الكتب الإسلامية على أحسن صورة . صوروا على أنهم أعلم أهل زمانهم ، وأنهم أفقه أبناء دينهم فى التوراة ، وأنهم « الأحبار » حقاً ، وأنهم كانوا يعرفون أصل التوراة وما احتواه من أسرار . ولهذا السبب قالوا عن أحدهم وهو « كعب » أنه « كعب الأحبار » وأنه « ملجأ العلماء » (١) ، وأنه درس عامر ابن عبد الله بن عبدالقيس الأنبارى الزاهد المعروف التوراة فى نصها الأول (٢) وأنهم كانوا على جانب كبير من الزهد والتقوى ، وأنهم فوق التهمة والكذب (٣) . ولكن جمهرة من المحققين ارتابت من هذا القول وشكت فى أكثره . والواقع أن أكثر ما روى عن هؤلاء من أخبار وأقوال يشير إلى أنهم لم يكونوا على نحو ما قيل

(١) الزرقانى ج ٤ ص ١١٠ طبعة القاهرة سنة ١٢٧٠هـ . المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٦٦ .

(٢) ابن سعد طبقات القسم الأول ص ٧٩ س ٥ (طبعة سخاو) . المذاهب الإسلامية ص ٦٦ .

(٣) المذاهب الإسلامية ص ٦٦ ، أحياء ج ٣ ص ٣٤٥ .

مصرع البغي

للأستاذ محمد سعيد العريان



قال الشيخ لفتاه وهما يسلكان طريقهما في بعض أرباض الكوفة: مِلْ بنا يا بُنيّ عن هذا الطريق؛ فليس يطيب لي يومي إذا وقعت عيناي على أنقاض تلك القلعة المهدمة؛ كأنما يجثم وراء كل حجر من أحجارها المتناثرة نحسٌ يتربّص بكل عابر سبيل ...

قال الفتى منكراً: وَيْ! كأنك تزعم يا أبتِ أن في بعض الجماد ما ينفع وما يضر! . .

قال الشيخ وقد أخذ طريقاً آخر إلى الوجه الذي يقصده، وقد أسند كفاً إلى كتف الفتى وكفاً إلى عصاه: إنما هو يا بنيّ ما قلت، وإنه لا نافع ولا ضار إلا الله؛ وأعوذ به من كفر بعد إيمان؛ ولكن ذكريات تتراءى لي من هذه الخربة كلما نالتها عيناي فتتجسد لي في النوم واليقظة صوراً حمراء دامية؛ لقد عُمّر أبوك طويلا يا فتى ورأى ما لم تره؛ ولعلك أن تُعمَّر مثل عمري فتتحدث إلى بنيك بما رأيتَ وما سمعتَ من أنباء هذه القلعة المشئومة! . .

استشرفت نفس الفتى إلى جديد يقصه عليه أبوه من أنباء الماضي، وإن أباه لراوية أخبار ومحدِّث تهفو النفوس إلى حديثه ويرهَف السمع؛ ولكن الشيخ مما أوهى الزمان منه لم تكن به قوة على حديث طويل وهو يمشي؛ فلما بلغ داره وتخفف من ثيابه جلس إلى وسادته ليستأنف حديثه إلى ولده عن تلك القلعة. قال:

لقد رأيتها يا بنيّ منذ بضع وخمسين سنة، وكنت يومئذ فتى في مثل سنك، والمسلمون حديثو عهد بهذا المصر، وأميرهم فيه سعد بن أبي وقاص، فلما مصَّر البلد وشرع طرائقه ونظم ديوانه أمر أن تنشأ هذه القلعة واتخذها داراً للحكم؛ وقد كان سعد مستجاب الدعاء يا بني؛ وكأني به حين حفر أساسها قد دعا الله أن يجعلها عصمة للمسلمين من عدوهم؛ ولو أنه اطلع على الغيب لكانت دعوته إلى الله أن يجعلها عصمة المسلمين من شر أنفسهم؛ إذن لارتدت عنها شهوات المبطلين وعصمتْ أهل هذا المصر من أن يسفك بعضهم دماء بعض كما عصمتْهم من عدوهم؛ فما طرق الكوفة عدوٌّ من أهل الشرك منذ مصَّرها سعد وأنشأ بها هذا الحصن أو يسفك بها كافرٌ دماً؛ ولكن اتخذوها مَطْمَعَةً يسفك بها بعضهم دماء بعض ... قال الشيخ:

في هذه القلعة يا بنيّ، شهدت رأس الحسين بعد أن قتله أهل البغي دون الفرات شهيداً مظلوماً وحالوا بينه وبين الماء، لا يشرب من ظمأ، ولا يجوزه إلى مأمن، ولم يكفهم ما فعلوا به وبأهله وولده، ففصلوا رأسه عن جسده وحملوه إلى عبيد الله بن زياد الدعي، فكأنما أراه الساعة والرأس الشريف بين يديه المخضبتين بالدم لا يكاد يكتم فرحته بموته؛ كأنْ قد ضمن به الخلود في الحياة حين ضمن به الخلود في إمارته!

ثم حمل الرأس إلى دمشق ليطيب يزيد بن معاوية نفساً بالنظر إليه ويطمئن بالا باستقرار الأمر له.

هل رأى قط واحد من أهل الكوفة أو من أهل هذه

عنهم من العلم، وأنهم لم يكونوا أصحاب علم بالتوراة، وأن ما أوردوه بثوب إسلامي لم يكن سوى أشباح ضعيفة لما ورد في بعض الأماكن من أسفار التوراة. وأنه كان في الواقع نوعاً من القصص الشعبي الإسرائيلي الذي كان شائعاً بين يهود اليمن والحجاز wolkslore وأنهم بيهوديتهم هذه يختلفون كثيراً عن يهود فلسطين مثلا أو العراق. وأنهم حاولوا إدخال «اليهوديات» في الإسلام وهو ما عرف فيما بعد باسم «الإسرائيليات» أو «القصص الاسرائيلية» (1)، والتي حذر منها المفسرون. وأن بعضهم تآمر على الخلفاء؛ بينما كان يتظاهر بخلاف ذلك.

جواد علي

(1) Fleischer-Festschrift Morgenlandi-sche forschungen Leipzig 1875 s 298 Lidzbarski De Propheticis legendis Arabicis Leipzig 1893 s 39.

القلعة رأس الحسين فى الطست بين يدى عبيد الله ثم غابت هذه الصورة عن خياله ؟ ... قال الشيخ :

ومضت يا بنىّ منذ ذلك اليوم سنوات ، ومضى يزيد إلى ربه بما حمل من أوزار الناس وأوزار نفسه ، وتعاقب على عرش بنى أمية فى الشام أمير بعد أمير ، وظن عبيد الله ابن مرجانة أن العيش قد طاب له ، وأحسبه قد نسى يوماً له بقلعة الكوفة وبين يديه رأس الحسين الشهيد ، ولكن الأقدار لا تغفل عن أهل البغى ؛ ولم ينس المؤمنون من شيعة بنى هاشم جناية بنى أمية وبنى سُمية على عترة النبى المصطفى من خير خلقه ؛ فمضت الدعوة إلى الثأر لهم تتنقل من فم إلى فم وتتقاذفها الفلوات والأمصار حتى نهض لها المختار بن أبى عبيد يهتف فى شيعة الحق : يالثارات الحسين !

واجتمعت له الجموع وتكتبت الكتائب ودانت لدعوته البلدان ؛ وخرج ابن زياد ليلقاه ، أو ليلق حينه ؛ فالتق بجيش المختار فى أرض الموصل على شاطئ نهر خازر ؛ ونالته ضربة سيف باتر فقدّته نصفين ، فيداه فى الشرق ورأسه فى المغرب ، وكما حمل رأس الحسين من حيث قُتل على الفرات إلى قلعة الكوفة — حُمل رأس عبيد الله من حيث هلك على شاطئ نهر خازر إلى قلعة الكوفة كذلك ...

وفى هذه القلعة يا بنى ، شهدت للمرة الثانية رأساً فى طست بين يدى أمير القلعة ؛ وكأنى يومئذ بالمختار بن أبى عبيد إلى رأس ابن مرجانة بين يديه وهو فى مجلسه ذاك من تلك القلعة وعلى شفتيه مثل تلك الابتسامة ! ...

ولعل كثيرين غيرى قد رأوا ما رأيت يومئذ وفى ذلك اليوم الآخر ، فانطبعت فى أنفسهم صورة الرأسين ومنظر الأميرين ؛ فمنهم من نسى صورة بصورة ومنظراً بمنظر ؛ ولكننى لم أنس ! قال الشيخ :

ومضت يا بنىّ سنوات أخر ، وتقلبت الأحوال بالناس ما تقلبت ، وجدّت أمور بعد أمور ؛ ولكن رجلا من أصحاب الأمر لم ينس أن له ثأراً عند المختار بن أبى عبيد ؛ ذلك مصعب ابن الزبير يا بنىّ ، أمير تلك الجهات من قِبل أخيه عبد الله الثائر بمكة ؛ فقد كان يرى المختار دعياً فى شيعة علىّ ، يتلصق بهم ليطلب لنفسه ملكا وإمارة ؛ وقد سبقت له بيعة لعبد الله ابن الزبير فى مكة على أمل يأمله ، فلما خاب أمله ذلك زعم أنه شيعة على والثأر لولده ، ليصل بذلك إلى مناوأة الأمويين والزبيريين جميعاً ؛ فنهد مصعب لحربه بالجيش اللجب ، تشايعه قبائل وبطون وجماعة من أهل الرأى وطائفة من أولى البأس فى الحرب ؛ والتقى الجيشان فى معارك ، ودارت الدائرة على المختار فلجأ إلى دار الإمارة بالكوفة معتصما فى طائفة قليلة من أصحابه لا قوة لهم على المقاومة ؛ وحصرهم جيش الزبيريين حتى لم يجدوا بداً من البروز لحربهم أو النجاة بأنفسهم ؛ ونال المختار ضربة كانت فيها نفسه ، فاحتز رأسه وحمل إلى الأمير مصعب بن الزبير فى قلعة الكوفة .

وكما شهدتُ من قبلُ رأس الحسين ورأس ابن مرجانة بين يدى أمير القلعة ، شهدت رأس المختار ...

وكأنما هجس بنفسى وقتئذ هاجس وأنا أنظر إلى مصعب بن الزبير وبين يديه رأس المختار وتمثلتْ لى صورة غير التى تراها عيناى فى تلك الساعة ؛ فكأن الذى فى الطست ليس هو رأس المختار بن عبيد ، ولارأس ابن مرجانة ، ولارأس الحسين ؛ ولكنه رأس مصعب نفسه ؛ وكأن الأمير الجالس على الكرسى رجل آخر غيره ، ولكنه رجل لا أعرفه ، لأن عينى لم تقع عليه قط .

هذا منظر تكرر على عينىّ ثلاث مرات ، فى صورة واحدة ، ومكان واحد ، والأسباب تكاد تتشابه ؛ فكأنما رأيت منظراً رابعاً لم يره أحدٌ بعد ، وكأن هاتفاً من وراء الغيب يهتف بصوت أكاد أحكى نبره : لكل باغٍ يوم ! ...

واستقرت هذه الصور الأربع فى واعيتى لا أكاد أغفل عنها طرفة عين ؛ أما ثلاثٌ منها فرأيتها رأى العين ووعيتُها وعى اليقظة ؛ وأما الرابعة فكانت وهما تجسد حتى قارب أن يكون حقيقة مما يُدرك بالحس ! قال الشيخ :

لست أدرى يا بُنىّ أكانت هذه الصور الأربع فى واعيتى أنا وحدى أم كان غيرى يعيها ؛ ولكن الذى أرويه يقيناً هو أن رجلا واحداً من الذين شاركوا فى هذه الحوادث الدامية لم تخطر على باله قطُّ الصورةُ الرابعة ؛ ذلك هو مصعب بن الزبير نفسه !

وتوالت الأعوام يابنى وهذه الصور تتراءى لى فى يقظتى وفى منامى ، حتى حرّمتُ على نفسى أن أجوز ذلك الطريق حتى لاتقع عينى على تلك القلعة المشئومة فتجدّد لى ذكريات وتبعث تلك الصورَ البغيضة إلى نفسى ...

وكان عبد الملك بن مروان على عرش بني أمية في الشام ، وقد تفانى أعداؤه ومناوئوه طائفة بعد طائفة وأهلك بعضهم بعضاً فلم يبق ثمة من يخشى خطره غير ابن الزبير ؛ فهيأ جيشاً سيره نحو العراق لحرب مصعب ؛ وانضم إليه فلول من أصحاب المختار ابن عبيد ، لا يحملهم على الحرب معه إلا الرغبة في الثأر من قاتل صاحبهم ...

والتقى جيش الزبيرين وجيش بني أمية في مسكن ، على نهر الدجيل ، عند دير الجاثليق ؛ ونشبت المركة ، فشد على مصعب رجل من أصحاب المختار وهو يقول : يالثارات المختار ! وطعنه فأبلغه أجله ...

واحتز رأس مصعب وحمل إلى عبد الملك بن مروان في قلعة الكوفة ...

وشهدت الصورة الرابعة عياناً ، وكنت أراها رأى المتوهم منذ بضع سنين . ورأيتُ عبد الملك بن مروان جالساً على كرسيه وبين يديه الرأس في الطست ...

وكان بين مصعب وعبد الملك مودة حين كانا في المدينة قبل أن ينزغ بينهما الشيطان . . . وأحسبني رأيت دمعة في عين عبد الملك وهو يقول محزوناً وينظر إلى رأس مصعب : « متى تغذو قريش مثلك ! ؟ »

وغامت على عينيّ غاشية ، فقلت ولا أكاد أعي ما تلفظه شفتاي: « إني رأيت بهـذه القلعة رأس الحسين أمام عبيد الله بن زياد ، ورأس ابن زياد أمام المختار ، ورأس المختار أمام مصعب ، ورأس مصعب أمام أمير المؤمنين ! .. »

وبلغت كلماتي أذنَ الأمير ، فكأنما تطيرَّ مما سمع ، فأمر بنقض بنيان القلعة ؛ فهي من يومئذ أنقاض يابنيّ ! .

قال الفتى :

فما يفزعك منها يا أبتِ وقد صارت إلى ما ترى ؟ .

قال الشيخ .

— لست أدري يا بنيّ ؛ ولكني أتوقع كلما وقعت عيناي على أنقاضها أن أحداثاً ستحدث في هذا المكان ، وتزدحم عليّ ذكريات الماضي وصوره الحمراء الدامية ...

ثم صمت الشيخ وأطرق ، وسرحتْ خواطر الفتى إلى واد بعيد .

* * *

وتعاقبت السنون ، ومات الشيخ ، وأيفع الفتى ثم اكتهل وبرقتْ في فوديه شعراتٌ بيض ؛ ونسي كل ما كان من حديث أبيه ؛ ونسي أهل الكوفة ما مرَّ بهم من أحداث وما وقع في القلعة من حوادث ؛ ولكن أنقاض القلعة ظلت مركومة حيث كانت ...

(ومر الفتى ذات يوم بالمكان فتذكر ، ووقع في وهمه أن شيئاً ما سيحدث ...

(ومضت أيام ، وحدث شيء ...

من وراء أنقاض القلعة المهدمة بالكوفة بدأت طلائع الزحف العباسي إلى دمشق ، لتحطيم عرش بني مروان ! !

وتنفس الفتى نفساً عميقاً حين بلغه النبأ ، وقال في ثقة واطمئنان : آمنتُ بأن لكل باغ مصرعاً . . !

محمد سعيد العريان

من خطايا التائهين

للأستاذ محمود حسن إسماعيل



من هؤلاء ؟ دوَّخوا الترابا
وأشبعوا وجهَ الثرى عذابا
فى كلِّ يومٍ يطرُقون بابا
ويفجأون الزمن المنابا
فيمسخون الُخلد والشَّبابا
ويُشكاون سِحرهُ الوثابا
سيَّان إن هُمْ نادموا الأترابا
أو عاشرُوا الوُحوش والذِّئابا
سيَّان يلقوْن المنى قبابا
أو يرضمون حظها يبابا . . .
صار الوجودُ حولهم سرابا
وسحرُه أضحى لهم عذابا
ونارُهُ صُبَّت لهم شرابا
فأينما حلوُّا رأوْا خرابا
وصادفوا الهُموم والأوصابا
والغُمَّةَ الهوجاء والضَّبابا
ونِقمــةً لا تعرفُ المتابا
ولا تذوقُ الندم الصَّخَّابا . . .
وأينما طافُوا رأوا حِجابا
وظُلمــةً لا ترفعُ النِّقابا
سدَّت عليهم سدلها المُرتابا
وضيمت فى قلبها المآبا . .
سُبْحان من فرَّقهم شعابا
وهشهم فى مُلكِه ذُبابا
وقدَّر التيهُ لهم عقــابا

وبْلى عليهم عبدُوا التِّرابا
وألَّهُوا من الحصى أربابا
وقدَّسوا من زيْفه كتابا
وبعثروا صـــلاتهم أسرابا
فى كلِّ أرضٍ تنشد المحرابا
وترصـــدُ الدينار أين غابا
ولو طوت لمتــــه الشهابا
ودفنت فى برقها السَّحابا
العرضُ من أجسادهم تحابى
وقبَّل الأبواب والأعتابا
وشقَّ عن مزارِه الأثوابا
ومسَّهُ تيهُ الهوى فذابا

مدَّت فلسطينُ لهم رحابا
وأفسحت لضيْفهم جنابا
فأترعوا السمَّ لها والصَّابا
وحيَّرُوا فى أمرها الألبابا
أمضت إليهم سيْفها الثلاَّبا
فساقهم فى نارها أحطابا
فليجعلوا التيه لهم ركابا
ويتركون الله والأعرابا

نملتان في الفلفل

للدكتور زكي نجيب محمود



جلس الشيخ في دكانه محزوناً ؛ اعتمد رأسه على راحتيه وجعل يفكر : ما ذا أنا صانع يا رباه في جحافل النمل التي تهجم على سكّري في ظلمة الليل ؟ إنها لتأكلني أكلا إذ هي تأكل قوت عيالي ، وإني لعائل أسرة أكاد أنوء بحملها الثقيل ؛ لو كانت النمال مما يرعى مبادىء الأخلاق ، لناشدتها الضمائر ألا تسطو على ملك غيرها ، فحرام عليها أن تستريح بياض النهار في أعشاشها ، حتى إذا ما سترها الليل بعتمته ، ملأت بطونها مما كدّ غيرها في جمعه وكدح ، حتى تندّى منه بالعرق الجبين . لكن — وا أسفاه — ليس للنمل أخلاق يُراعيها .

وتحير الشيخ في أمر هذا النمل ، كيف يعرف موضع السكر وإنه لخبيء في علبة محكمة الغطاء ؛ وإن الشيخ ليغير مكان العلبة كل مساء ، فيضعها على الرف مرة ، وتحت النضد مرة ، ويكسوها باللفائف تارة ، ويعلقها في الهواء طوراً ... لكن النمل يعرف ! !

ولمعت فكرة في رأس الشيخ كاد يثب لها في مقعده : أما والله إني لأحمق مأفون ، أضع إصبعي في الفخ حتى إذا ما ضغط الفخ على إصبعي ، صرخت من الألم ! ألم أكتب على الصناديق بيدي هذه بطاقات ، تنم عما في بطونها فلمن كتبتَ — يا أحمق — هذه البطاقات ، إن لم تكن للنمل يقرؤها في الليل ، وإنه لذو بصر حديد ، فيعرف موضع السكر من الدكان في حندس الليل ! لأنزعن من فوري هذه البطاقات عن أماكنها ، وكفاني من بلاهتي ما لقيت كفاني ... ونهض الرجل في حماسة لينزع ...

لكن لا ! لقد لمعت عيناه بفكرة أخرى ، فكرة افترت لها شفتاه بابتسامة عريضة ، ثم انفجرت بقهقهة عالية ... أأنا الرجل الذي يغلبه النمل على أمره ، وإن عُد النمل بالألوف لا بآحاد وأفراد ؟ أأنا الرجل الذي يغلبه النمل على أمره ثم لا ينتقم ؟ فيم إذن كان مقامي في حلقات العلم أعواماً إن قصرت بي عن ختام العلم فقد دنت منه ؟! ويحك الليلة مني يا نمال ! .

ونزع الرجل في زهو الظافر بطاقة السكر ووضعها على علبة الفلفل وكتب الفلفل على علبة السكر .

— سيأتي النمل الليلة أسراباً كعهده ، وسيقرأ العنوان فيظنه دالاً على مضمون الكتاب ، وسيدخل علبة الفلفل وفي وهمه أنه سيجد حلاوة كل يوم ، وما كل ما يتمنى المرء (يا نمل) يدركه ، تأتي الرياح (يا نمل) بما لا تشتهي السفن ...

وأوشكت الخطة أن يصيبها الفشل ، إذ جاء النمل ولم يقرأ ، بل شم وانصرف ، إلا نملتين حفظتا القراءة في مدرسة من مدارس الإلزام ، فقرأتا وضحكتا من جهل الأخوات ، وتسللتا إلى السكر الموهوم ، فإذا داخل العلبة ديجور لم تعهداه فيما سلف من الليالي . وبيناهما تسعيان وراء الرزق ، صدمت نملة منهما نملة في بعض الطريق :

— ما لك الليلة ماذا دهاك ؟

— عتمة لم أعهدها ها هنا يا أختاه .

— لست أرى في الأمر اختلافاً عن المألوف .

— بل ألفتُ أن يتسرب من سماء هذا المكان شعاع ضئيل من الضوء يعكس شيئاً من بياض ، وإذا الأمر كله الليلة في عيني سواد في سواد ؛ ثم ألفت أن أسير على منبسط فسيح ، فإذا بي الليلة أدور مع موطىء القدم حيث يدور ، ثم ... لست أدري يا أختاه ماذا دهاني ، لعله مرض في جوفي تغيرت معه طبيعة دنياي ثم ألفت على اللسان حلاوة فإذا بالشيء يلسع الليلة لساني لسعاً أليماً ، حتى ليكاد اللسان من حدة اللسع يحترق .

— لك الله يا مسكينة ، ألا إن الأرض هي الأرض والسماء هي السماء ، والمأكل كعهدنا طيب به حلو المذاق ، غيري من جوفك تتغير الدنيا في عينيك .

— أوَاثقة أنت أننا فى علبة السكر .

— قرأت العنوان بعينى ، وأذوق الطعم الآن بلسانى ، وليس إلى الشك عندى من سبيل . وفيم الريبة والسؤال ؟ دونك المكتوب فاقرئيه ، وليست الرحلة إليه بشاقة ولا عسيرة

— سأفعل ، لا ارتياباً فى صدق ما تقولين ، ولكن ليطمئن قلبى .

وخرجت النملة إلى ظاهر العلبة ثم عادت والتقت بأختها بعد تعثر فى الطريق وبحث فى الثنايا هنا وهناك .

— صدقت ، إنه السكر لا شك فيه .

— لا « يا أختاه » بل كل الشك فيه .

— وى ! ماذا تقولين ؟ ماذا تظنين ؟ .

— كأنه « يا أختاه » حبُّ فلفل ، إنى لأحس الآن ما تُحسين ؛ فسوادٌ شديد حالك يسد علىّ مسالك الطريق ، وانبعاج فى الأرض لا يكاد يمكننى من السير ، ثم طعم لاذع يذيب اللسان ويمزق الأحشاء .

— لكنه السكر ، والبدال لا يخطئ الترقيم .

— نعم ، لابد أن يكون سكراً ، لأن البدال لا يخطئ الترقيم ؛ فصبراً جميلا ، حتى نملأ جوفينا مما رزقنا الله وإنه لحلو مستساغ ، وإن كره البصر واللسان والأحشاء جميعاً !

وأصبح الصباح وعاد النمل إلى عشه ، لا لتستريح النملتان هذه المرة من عناء الليل ، بل لتتلويا من عذاب أليم كلما مغصت فى جوفيهما الأمعاء ، والتقت المسكينتان فى منبطح من العش :

— ليتنا ما أكلنا السكر .

— السكر ؟ !

— وماذا عساه فى ظنك أن يكون ؟

— اسمعى يا أختاه ، لقد ذهبت مع ظلمة الليل غفلتى ، وعادت إلىّ مع ضوء النهار حكمتى ، إن هؤلاء الناس لأصحاب خدعة فما فتئوا الدهر يخدعون ويُخدعون ، وإنى لأعلم من أمرهم ما لا تعلمين ، بل لعلى أعلم منه ما ليس يعلمون .

— ماذا تريدين ؟

— سأوضح لك الليلة ما أريد .

وجاء المساء وخرجت النملتان ، نملة تهدى وأخرى تهتدى تعالىْ معى فادخلى خزانة الكتب ، امسكى هذا الكتاب ما عنوانه ؟

— فى الفلسفة الإسلامية .

— ومَن كاتبه ؟

— شيخ جليل فى طليعة الشيوخ .

— دونك فاقرئيه ، ماذا ترين فيه ؟

— لست والله أطالع فيه إلا فقهاً وما إلى الفقه .

— نعم ، وسماه فلسفة ليدخل المريدون خلال العنوان إلى فلسفة ، فإذا بهم فى فقه يتقلبون ، كما دخلنا ليلة أمس على بطاقة من سكر ، فإذا الفلفل يملأ منا الأمعاء والبطون ... وهذا الكتاب الآخر ، ما عنوانه ؟

— خواطر أديب .

— ومن كاتبه ؟

— علَم من أعلام القلم .

— دونك فاقرئيه ، ماذا ترين فيه ؟

— لست والله أرى فيه إلا خليطاً من معرفة لا هى إلى العلم فى دقته ولا إلى الأدب فى جماله وصوره .

— نعم ، وجعله الكاتب أدباً ليتسرب إليه الراغبون فى أدب ، فإذا هم فى مزيج آخر يمرحون ... اخرجى من بطون الكتب وهيا بنا إلى الحياة المريضة فى المنازل والشوارع ، انظرى هناك ، ماذا تبصرين ؟

— كومة من قمامة ... لا بل هو آدمى يتحرك .

— هذه القمامة البشرية يسمونها مدنية شرقية

— كلا ، لا تمزحى ، بل ...

— وانظرى هناك ، ماذا تبصرين ؟

— شرطى يضرب إنساناً فى عرض الطريق .

— وهذا الطغيان السارى يسمونه مدنية شرقية .

— كلا لا تمزحى ، بل ...

— وانظرى هناك ، ماذا تبصرين ؟

— كأنى به مريض محموم أحاط به ذووه .

— وهذه الجهالة يسمونها مدنية شرقية .

— كلا لا تمزحى ، بل ...

— وادخلى هذه الدار فانظرى ، ثم ادخلى جماجم الرءوس وانظرى ، وسترين شيئاً عجباً يسمونه مدنية شرقية .

— كلا ، لا تمزحى ، بل المدنية الشرقية شىء غير هذا كله سمعتهم هكذا يقولون .

— وأنا سمعت آخرين يقولون إن الدنية لا تكون شرقية ولا غربية ، إنما هي علم يعلمه الإنسان أنى كان ، وفن يخلقه الإنسان أنى كان فخيثما وجدت الجهالة والمرض ، وجدت ماذا ؟

— لكنهم يقولون …

— ويحك من نملة حمقاء ، أفتنصتين بعد لما يقولون ؟ إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، ألا يكفيك ليلة واحدة تقضينها فى علبة الفلفل ؟

زكي نجيب محمود

وامعتصماه!

للأستاذ عمر الدسوقي



عربية كريمة ، تنمى إلى أمة لم تألف الذل مرة ، ولكن رحب البيد أحكم عزها فما شئت من من قلب أبى ، ومنطق سليم ، وعقل أنضجته التجارب ، ونفس ترى الدنيا لديها رخيصة ، إذا كان فى الدنيا هوان يشينها : إلى كل شهم أريحى تزينه ، خلال كروض الزهر طاب عبيرها :

إذا سيم ضيما كان للضيم منكراً وكان لدى الهيجاء يخشى ويرهب
وإن صوت الداعى إلى الخير مرة أجاب لما يدعو له حين يكرب

أبى على هذه العربية جدها النكد إلا أن ترسف فى ذل الأسر غب حرب من تلك الحروب الطويلة التى ظل أوارها مشتعلا حقباً مديدة بين العرب ، الذين حملهم الله رسالة الإسلام ، لينقذوا بها البشرية الكليمة ، وبين الروم الذين أدال الله منهم ووضع أنوفهم فى الرغام ، وإن لم ينسوا عزهم الغابر ، فظلوا يغيرون على أطراف الدولة العربية الشاسعة كلما هبت عليهم نسمة من قوة ، أو غرتهم من المسلمين غفلة عارضة .

وفى ذات يوم لطمها سيدها الرومى على وجهها الحر الكريم فوخزها ألم الذل وخزة صاحت على إثرها تستنجد الخليفة العربى العظيم : وامعتصماه ! وامعتصماه ! فضحك العلج ملء شدقيه ونظر إليها نظرة الشامت الجبان ، وقال: وماذا عساه يفعل المعتصم؟ أيجىء على أبلق وينصرك ؟ ! إنك ذليلة كسيرة ، وقد كتبت عليك الشقوة ، وهيهات أن يستجيب لندائك الوقح هذا الذى تنادين ! ثم أشبعها ضرباً ولطماً ، وهى تنادى وامعتصماه! وامعتصماه!

جاء رجل إلى المعتصم ، وبلغه نبأ هذه العربية الكريمة ، فانتفضت نفس الخليفة الجليل انتفاضة الألم ، وسأل الرجل : وأين هذه المرأة ؟ فأجاب : إنها فى عمورية يا أمير المؤمنين ، فقال المعتصم : وفى أى جهة عمورية ؟ فأشار الرجل إلى جهتها ، فنادى المعتصم بأعلى صوته : لبيك يا ابنة الكرام ! لبيك ! ثم لبيك ! هذا المعتصم بالله أجابك !

وتجهز المعتصم من فوره إليها فى اثنى عشر ألف فرس أبلق تطوى سنابكها الأرض طياً لتغيث الملهوف وتستجيب للنداء الأبى وكانت عمورية مدينة عاتية ، قد أحكم تحصينها ، وبها من جنود العدو تسعون ألفاً أو يزيدون ، فحاصرهم المعتصم ، وطال حصاره لها ، وأخبره المنجمون أنها لن تفتح إلا فى الصيف حين ينضج التين والعنب ، وكان قدومه إليها فى زمهرير الشتاء، والأرض مسجاة فى كفن أبيض من الثلج ، وقد صوح ما عليها من شجر ، وقل الماء والثمر ، وأجهد الجيش ، كما أجهد العدو العنيد . بيد أن المعتصم أبى أن يستمع لصوت المنجمين المثبطين الذين أنذروه شراً مستطيراً إن هو استجاب لرغبة فؤاده واقتحم أسوارها :

وخوفوا الناس من دهياء مظلمة إذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب

وشد على المدينة شدة بطل مغوار فدك أسوارها ، وأشعل النار فيها ، فذلت له وما ذلت قبل لأحد :

من عهد اسكندر أو قبل ذلك قد شابت نواصى الليالى وهى لم تشب
بكر فما افترعتها كف حادثة ولا ترقت إليها همة النوب

ودعا المعتصم بالرجل الذى بلغه حديث الجارية العربية المستغيثة فدله على الموضع الذى رآها فيه تذل وتهان ، وبحث عنها حتى وجدها ، وقال لها : هل أجابك المعتصم ؟ ! وصار سيدها الرومى

لها عبداً ذليلا وأفعم قلبها عزة وأنفة . ورحم الله أبا تمام حين مدح المعتصم إثر هذا الفتح المبين بقوله مستهزئاً بآراء المنجمين :

السيف أصـــدق أنباء من الكتب في حده الحـــد بين الجد واللعب

بيض الصـــفائح لا سود الصحائف في متونهن جـــلاء الشـــك والريب

أبقت بني الأصـــفر الممراض كاسمهم صـــفر الوجوه وجلّت أوجه العرب

تسعون ألفاً كآســـاد الشرى نضجت جلودهم قبـــل نضج التين والعنب

واليوم ، وعلى مرأى منا ومسمع تنادى بلدة عربية كريمة ، وهي فلسطين الجريحة : وامعتصماه ! وامعتصماه ! . وقد أبى لها الجد العاثر إلا أن ترزأ بشرذمة من صعاليك الأمم ، وأفاق الأرض الذين لفظتهم ديارهم ، ومجهم مواطنوهم . يريدون أن يسلبوها عروبتها ويهدروا كرامتها ، وقد مالأهم من لا أخلاق لهم من تلك الدول التي باعت ضمائرها للشيطان ، وخنعت لصوت الذهب الرنان ، وصفعت الإنسانية المهيضة على وجهها دون حياء ، أو شعور بعظم الجريمة ، وتنكرت لكل تعاليم الحضارة الحقة ، فلا شرف ، ولا ذمة ، ولا مروءة ، ولا عدالة . بل اتخذت شرعة الغاب ، وقانون الكهوف لها إماماً ، فتباً لهم وخزياً ... !

أحقاً إننا أمة هازلة لا تدرك الخطر الداهم ، ولا تقدر الخطب الجاثم ، ولم تخبر العدو الظالم ؟ هل ستمثل مأساة الأندلس على مسرح التاريخ ثانية ، فيلقى بعرب فلسطين فى البحر ، كما ألقى عرب غرناطة من قبل . ويومئذ نجهش بالعويل والبكاء ، وننتحب كما تنتحب النساء : نقلب الأكف أسفاً وندماً ، ونعض الشفاه حسرة وألماً ، فيقال لنا كما قيل لأولئك : مُلكٌ لم تحافظوا عليه محافظة الرجال فابكوا عليه اليوم بكاء النساء . ألا تعساً لأمة هازلة وسحقاً ! .

إن الأمر جد ، فنصرة فلسطين لا تدعو إليها لحمة القرابة والنسب ، ولا صلات التاريخ والأدب ، ولا حرمة الجوار ونخوة العرب فحسب ، ولكن تحتمها إليها فضلا عن كل ذلك — وما ذلك بالقليل — زعامة مدعاة ، ومصلحة مرجاة . فمصر اليوم تغص بالرجال والأموال ، وتتبوأ فى قلوب أبناء العروبة لمكانتها العلمية ، ونضجها الفكرى أسمى منزلة . ثم إن دولة يهودية فى فلسطين مؤيدة بأموال اليهود فى العالم ، وبخبرتهم العلمية وثقافتهم الواسعة لهى الوباء الذى يقضى على كل ماتفكر فيه مصر من مشروعات وإصلاحات ، وما ترجوه من تجارة عريضة دولية ، وصناعة ضخمة تغنيها عن سواها ، وأساطيل مدنية تجوب البحار وتجلب الخيرات ، وموانى تحتل مركز الصدارة على سيف البحر ، وغنى يكفل لبنيها الذين أرهقوا طوال حقب التاريخ نوعاً مقبولا من معيشة الأناسى ذوى الحضارة . كل هذا مهدد بكارثة على يد الصهيونية ودولتهم المنتظرة لا قدر الله !

ثم إن هؤلاء الأفاقين — وهم قلة وسط البلاد العربية — سيطلبون العون حتماً من حلفائهم الذين ناصروهم وستظل فلسطين على أيديهم مباءة للمستعمرين الناصبين ، يهددون الحريات ، ويمتصون دماء الأبرياء ، ويوقعون بين الأخوة من العرب العداوة والبغضاء

فدفاع مصر عن فلسطين دفاع عن أخ شقيق ، ودفاع عن مصلحة مشتركة ، ودفاع عن كسرة الخبز ، وموارد الحياة ، وأسباب العزة والحياة ، ودفاع عن الحرية والسلطان ، وعن كريم يهان ، وعزيز يذل ، ومال يسلب ، وعرض ينتهب ، وتراث ينتصب

لتجد مصر بالمال غنيها وفقيرها ، صغيرها وكبيرها ، شبابها وكهولها ، رجالها ونساؤها ، فالمعركة فاصلة ، وقد هجم الغرب المشئوم عيداننا فإما وجدها صلبة قوية فارتد خاسئاً وهو حسير ، وإما وجدها لينة رخوة تحرص على المال ولا تحرص على الحرية ، ولا الكرامة ، ولا المستقبل ، فتمادى فى شرته وأفصح عن جبروته وسطوته ، وفى ذلك ذل الأبد لا قدر الله ! .

لتجد مصر برجالها وشبابها ، وفى ميدان فلسطين فرصة ذهبية لتدريب ذلك الشباب الذى قلمت أظفاره سنى البغى والعسف والجهل ، فتخنث ونسى محتده الكريم وتاريخه العظيم ، وتطرّى وأمعن فى الهزء والحياة العابثة . إن هذا الشباب لو أحكمت مرّنه ميادين القتال ، وحياة الخشونة ، ومصارعة الأعداء ، لعاد بعد هذا الجهاد إلى مصر وحسب له أعداؤها ألف حساب .

إن فلسطين اليوم تنادى : ! وامعتصماه ! وامعتصماه !

فليكن كل مصرى ، بل كل عربي — أين كان محله — معتصمها الذى تناديه ، وفارسها الذى ترتجيه .

يتلقى النـدى بوجه حيى وصـدور القنا بوجه وقاح

هكذا هكذا تـكون المعالى طرق الجـد غير طرق المزاح

عمر الدسوقي

الجزار الشاعر

للأستاذ العباس خضر



نشأ بين الساطور والوضم ، يصيب الحز ويطبق المفصل في اللحم وفي الشعر وكان ذلك في مدينة الفسطاط ، وفي القرن السابع الهجري ، في فترة من الزمان انتقل فيها حكم الديار المصرية من الأيوبيين إلى المماليك ، وعاش شاعرنا الجزار (أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم) مخضرماً بين الدولتين ، آناً يطوف بالداخ على الملوك والأمراء وحيناً ينطوي على نفسه لما يلقاه من إخفاق فيما يؤمل من هذا الطواف ، ولما يبلوه من أخلاق الناس ، ملتجئاً إلى حرفته راضياً عنها ، فهو أبداً بين كلاب : كلاب آدميين يقصدهم بمدحه لينال رفدهم ، وكلاب حقيقية من آل قطمير (1) تحوم حوله متطلعة إلى ما يلقى إليها من العظام ، وهو يؤثر حاله مع الثانية كما ترى في قوله :

لا تعبني بصنعة القصاب ... فهي أذكى من عنبر الآداب
كان فضلي على الكلاب فمذ صر ... ت أديباً رجوت فضل الكلاب

كان أبوه وقومه قصابين بالفسطاط ، ونشأ بينهم محترفاً حرفتهم ، وقد دفعه شغفه بالأدب إلى التعلق به ، وأول ما عرف منه في ذلك ، وهو صغير ، أنه نظم أبياتاً قلائل ، فأخذه أبوه وتوجه به إلى شاعر مشهور في ذلك العصر ، هو ابن أبي الإصبع وقال له : يا سيدي ، هذا الولد قد نظم شعراً واشتهى أن يعرضه عليك . فقال : قل . فلما أنشده قال له : أحسنت ، والله إنك عوام مليح . فراح الوالد مسروراً بابنه الذي يوشك أن يغشى بشعره مجالس الملوك والكبراء . وأراد أن يعبر عن شكره لابن أبي الإصبع ، فصنع طعاماً وحمله إليه . ولكن ابن أبي الإصبع كان قد طابت له « التورية » التي كانت جُلَّ همِّ أدباء ذلك الزمان ، فقال له : لأي شيء فعلت ؟ فقال : لثنائك على ولدي . فقال : أنا ما أثنيت عليه . فقال : ألم تقل إنك عوام مليح ؟ فقال : ما أردت بذلك إلا أنه خرج من بحر إلى بحر !

ولكن الصبي الجزار دأب على قرض الشعر ، يضرب في بحوره ويغوص على غرائب المعاني ، ويكسوها أصداف الألفاظ ، حتى استبان طريقه وتوضحت له الجادة .

كان يتطلع إلى حياة أخرى يتمتع فيها بلذات العيش غير حياة الجزارة التي يشقى فيها على غير طائل ، كما يقول :

أعمل في اللحم للعشاء ولا ... أنال منه العشا فما ذنبي
خلا فؤادي وفي فمي وسخ ... كأنني في جزارتي كلبي !

وكما يقول :

أصبحتُ لحاماً وفي البيت لا ... أعرفُ ما رائحة اللحم
واعتضت من فقري ومن فاقتي ... عن التذاذ الطعم بالشحم
جهلته فقراً فكنت الذي ... أضلهُ اللهُ على علم !

لم يكن أمامه إلا أن يرتاد سوق المدائح ، فانتجع القصور ، وأنشد ساكنيها ، ولم يغفل — مع مدحهم — وصف حاله وما يعانيه من الحرمان ، قال في آخر قصيدة مدح بها الملك الناصر ، وأنشده إياها في يوم النحر :

كيف يبقى الجزار في يوم عيد النـ ... ـحر دهر الإفلاس والعيد عيده
يتمنى لحم الأضاحي وعند النا ... س منه طريُّه وقديده
ولقد آن من لقائك أن تبـ ... ـيض أيامه ويخضر عوده

واتصل أيضاً بالملك الكامل والملك العادل ومدحهما كما مدح غيرهما من الحكام والأعيان . وأكثر من التنقل بين أقاليم القطر من الاسكندرية إلى أقصى الصعيد ، يقصد الممدوحين ، ويصف النيل وأسفاره فيه وما يلاقي بها من العناء ، ويقدم ذلك في مطالع القصائد بين أيدي المدائح ، قال من قصيدة في مدح ناظر الاسكندرية يصف رحلته في النيل :

لا تسلني عما لقيت من البيـ ... ـن فحال الغريب حال ذميم
كنت في كُبكة تطير بقلبي ... وهي طوراً على الثنايا تحوم
أنظر الموج حولها فأخال الـ ... ـجيم تاء لخيفتي وهي جيم
لم أجد لي فيها صديقاً حميماً ... غير أني بالماء فيها حميم

(1) قطمير : اسم كلب أهل الكهف .

شنقوا قلمها مراراً على الريـ ـح ولا شك أنه مظلوم
وإذا ما دنت إلى البر أمسى عندنا منه مقـعد ومقيم
يسجد الجرف كلما ركع المو ج فـدأبى هنالك التسليم
وقبيح على أن أشتكى براً وبحراً وأنت بر رحيم

ويقول فيه صاحب كتاب (المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى) إنه كان « بديع النظم، عذب التراكيب، غواصاً على المعانى، فصيح الألفاظ، حلو النادرة، وكان صاحب مجون ولطافة »

وقد رأيت حقاً أنه يمتاز بالغوص على المعانى، من شعراء عصره المتهالكين على التصنيع فى الألفاظ، ومكانه بينهم يشبه مكان ابن الرومى بين شعراء عصره، مع ملاحظة الفارق الكبير بين الشاعرين وبين المصريين.

ولكنا نريد أن نتصفح أبا الحسين الجزار من وجه آخر وهو طبيعة شاعريته، ومدى صدقه الفنى فيما قاله من الشعر. وأرانى مضطراً هنا فى هذا المقام المحدود الذى يجمل فيه القصد إلى الأهم، إلى أن أضرب صفحاً عن القصائد الطويلة الكثيرة التى أنشأها فى المدح بدافع الرغبة الملحة فى رفع مستوى عيشه وهى لا تختلف كثيراً عن أمثالها مما تحشد فيها صفات المدح حشداً للممدوحين؛ وهذه القصائد وإن كانت كذلك إلا أننا لا نعدم فيها أبياتاً هنا وهناك تظهر فيها ظلال الشاعر وأثر شخصيته، وهى التى يصف فيها حاله وسوء عيشه.

وإذا أردنا أن ننتقل إلى الميدان الذى كان يركض فيه مجلياً فإننا نضم تلك الأبيات إلى شعر كثير آخر قاله فى التعبير عن مشاعره وتصوير ما يحيط به، ولست أدرى أكان من حسن الحظ أم من سوئه أن السوق التى راجت فيها مدائحه لم تدم، إذ انتهى العصر الأيوبى فى أواسط عمره، ولم يعد يلقى من حكام المماليك ما كان يظفر به من صلات الملوك الأيوبيين التى لم يبق تبذيره على شىء منها ولما عانى من كساد مدحه وجفاف أيدى الممدوحين ما عانى جعل يندب حظه الذى ضاع بين الشعراء والجزارة فيقول:

واللحم يقبح أن أعو د لبيعه والشعر بائر
يا ليتنى لا كنت جزاراً ولا أصبحت شاعر

ولكنه حزم أمره ورجع إلى الجزارة، وجلس بدكانه للكلاب، كما كان يجلس المدوحون له ولأمثاله من الشعراء وهو يقول فى خطاب من يدعى (شرف الدين) وقد لامه على

العودة إلى الجزارة:

لا تلمنى يا سيدى شرف الد ين إذا ما رأيتنى قصابا
كيف لا أشكر الجزارة ما عشـ ـت حفاظاً وأرفض الآدابا
وبها أضحت الكلاب ترجيـ ـنى وبالشعر كنت أرجو الكلابا

وراح يفاخر بحرفته، ويمزج المفاخرة بالظرف والفكاهة فيقول:

ألا قل للـــذى يسأ ل عن قومى وعن أهلى
لقـد تسأل عن قوم كرام الفرع والأصل
ترجيهـم بنـو كلب وتخشاهم بنو عجل

ويقول:

إنى لمن معشر سفك الدماء لهم دأب وسل عنهم إن رمت تصديقى
تضىء بالدم إشراقاً عراصهم فكل أيامهم أيام تشريق

واستخدم الشاعر الجزار صناعته فى معانيه وتورياته، فرق وظرف، ومن ذلك غير ما تقدم ما قاله فى الذم:

لا تلمنى إذا سطوت عليه فهـو تيس يهينه جزاره

وما قاله فى التطاول على المتنبى:

تماظم قدرى على ابن الحسين فذهنى كالعارض الصيب
وكم مرة قد تحكمت فيـه لأن الخروف أبو الطيب

وقد نهج هذا النهج فى استخدام الحرفة فى الشعر شاعران آخران كانا معاصرين للجزار وصديقين له، هما السراج الوراق والنصير الحمامى، وقد برع الثلاثة فى التورية بحرفهم، وبلغ « فن التورية » على أيديهم غاية الإجادة التى انحسر عنها فى الأزمان التالية، قال الحموى فى (خزانة الأدب): « ولم يزل ابن سنا الملك يتلاعب فى التورية باختراعاته ويسكنها فى عامر أبياته، إلى أن ظهر بعده السراج فجلا غياهبها بنور مشكاته، وتعاصر هو وأبو الحسين الجزار والنصير الحمامى وتطارحوا كثيراً وساعدتهم صنائعهم وألقابهم فى نظم التورية حتى أنه قيل للسراج الوراق لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك ».

ولئن جازت الاستهانة بالتورية باعتبارها إيغالا فى التصنيع لقد كان لها شأن آخر فى شعر هؤلاء، فقد أكسبتها حرفهم طلاوة وروتها بماء الظرف، قال الوراق:

يا خجلتى وصحائفى سود غدت وصحائف الأبرار فى إشراق
وموبخ لى فى القيامة قال لى أكذا تكون صحائف الوراق

وكتب الحمامى الى الجزار:

ومذ لزمت الحمام صرت به خلا يدارى من لا يداريه

أعرف حر الأشيا وباردها   وآخذ الماء من مجاريه

فأجابه الجزار بقوله :

حسن التأتي مما يعين على   رزق الفتى والحظوظ تختلف
والعبد مذ صار في جزارته   يعرف من أين تؤكل الكتف

وقد كان الجزار مطبوعاً على المرح ، وشعره يزخر بالملح والفكاهات وخاصة في (قافية الجزارة) كما يعبر (أولاد البلد) في مصر ، وهو في ذلك وفي طريقة دعابته بالسخرية من سوء أحواله في ملبسه ومطعمه ومسكنه وبعض أفراد أسرته وفي مجونه واستعمال التورية في كل ذلك يمثل الروح المصرية التي لا نزال نلقاها في القاهرة لدى (أولاد البلد) وأصحاب الحرف ، قال يصف نصفية له :

لي نصفية تعد من العمـ   ـر سنيناً غسلتها ألف غسلة
ظلمتها الأيام حكما فأضحت   في العذاب الأليم من غير زلة
كل يوم يحوطها العصر والدق   مراراً وما تقر بعملة

وفي البيت الأخير إشارة إلى ما كان في عصره من ضرب الناس وتعذيبهم « في جباية الضرائب » ليقروا بما عندهم من « العملة » فهو يقول إن نصفيته تعصر وتدق على الحجر عند غسلها وهي مع ذلك لا تقر بأن لديها نقوداً ... !

وقال يصف داره :

ودار خراب بها قد نزلت   ولكن نزلت إلى السابعة
طريق من الطرق مسلوكة   محجتها للورى شاسعة
فلا فرق ما بين أني أكون   بها أو أكون على القارعة
تساورها هفوات النسيم   فتصغي بلا أذن سامعة
وأخشى بها أن أقيم الصلاة   فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأت إذا زلزلت   خشيت بأن تقرأ الواقعة

وفي الأبيات التالية صورة للفكاهة المصرية الأصيلة :

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر
وجاد عليها سكر دائم الدر
وتبا لأوقات المخلل إنها   تمر بلا نفع وتحسب من عمري
ولي زوجة إن تشتهي قاهرية   أقول لها ما القاهرية في مصر

وقد بلغ غاية الظرف في قوله يهجو زوج أبيه :

تزوج الشيخ أبي شيخة   ليس لها عقل ولا ذهن
لو برزت صورتها في الدجى   ما جسرت تبصرها الجن
كأنها في فرشها رمة   وشعرها من حولها قطن
وقائل قال فما سنها   فقلت ما في فمها سن

ومن نوادره ذات الموضوع أنه كان مع جماعة من أصحابه ، فرغبوا إليه أن يشتري لهم لحماً من أحد الجزارين رجاء أن يكرمه بحق الزمالة ، فذهب وعاد إليهم بلحم ردىء ، فلما سألوه في ذلك قال لهم : إن الجزار حلف على أن أقطع اللحم بيدي كما أريد مبالغة في إكرامي ، فلما أمسكت بالسكين ووقفت بإزاء اللحم « أدركني لؤم الجزار ! »

وقد كان التصنيع طابع الشعر وهم الشعراء في ذلك العصر ، ولم يكن للجزار فكاك منه ، ولكنه كان مستظرفاً في صناعته لم يسف فيها ولم يبرد كما أسف وبرد غيره وخصوصاً من أتى بعده في العصور التالية . وكان مع ذلك ينطلق محلقاً مستجيباً لشاعريته عندما كان يصور حياته الخاصة ويتحدث عن حرفته وملابساتها ويبدع من يعرض به من أجلها ، ويداعب إخوانه ، ويرسل فكاهاته ؛ فقد كان يبلغ في هذه الموضوعات ما يريد ، وما يقتضيه فن الشعر ، من تصوير ما يحيط به والتعبير عن ذات نفسه المطبوعة على المرح المحبة للهو ، ولعله كان يبدد بفكاهته ما يتكاثف في سمائه من سحب الهموم والأكدار في بعض الأحيان .

العباس خضر

مبادئ ومبادئ

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن



بانت تباشيرُ الصباح المنجلى   ألق الستار على الظلام وأسدِل
يا مطلع الشمس المضيئة بالهدى   يكفى رقادُك بعد ليلٍ أليل
كنتَ الدليل على صباح مشرق   للحائرين ، ونور فجرٍ مقبل
حررتَ عُبدان النفوس فأنزلوا   من قمة الأيام أكرم منزل
ومشوْا على هام الليالى هامة   تطأ السماء كبدرها المتهلل
ومضوْا بأرواح كرام لا تنى   عند اللقاء وأنفس لا تأتلى
إيمانهم بالله غـــيرُ مزعزع   وضميرهم فى الله غير مزلزل
الحق فى يدهم وضىء الملتق   والسيف فى يدهم حديد المنصل
قحموا على الرومان أحصن دارة   وعلى ملوك الفرس أمنع معقل
قد أرخصوا فى الله كل عزيزة   ثم استقلوا فيـــه كل مدلل
حملوا القلوب على السيوف وأمعنوا   فى حملهنَّ على الرِّماح الذبَّل
كانوا على الأعداء أشأل قلة   لكنها عزَّت فـــلم تتقلَّل
هم حرروا الإنسان من أصفاده   واستنقذوه من المحل المهمل
أعلوا مكانته وكان محله   فى ذلك الدَّرْك الدنىء الأسفل
حكموا فكان العدل شرعة حكمهم
ما الحكم ؟ ما السلطان إن لم تعدل ؟ ؟ .

سارت مبادئهم وسارت خلفها   أفعالهم فى موكب متمثل
ليست مبادئهم حديث منمَّق   زيف اللسان ولا كلام مجمَّل
لم يخْدعوا بالقول كل محيَّر   أو يخلبوا باللفظ كل مؤمِّل
قل للسياسيين دينُ محمد   فيه مبادىء حرة لم تنكل
تلك الوعود المسرفاتُ بعهدكم   لا تمنع الإشكال إن لم تشكل ...
غنيتمو بالســـلم وهى خديعة   فالحرب بالأبواب قيد الأنمل
ووضعتمو (الميثاق) فوق محيطكم
ورميتموه بمـــائه المتحول . . .
غسلَتْه أمواج المحيط وكفنت   أوراقه فى مهدهن الأول
واحسرتاه لوعده المطول ... أو   واضيعتاه لنصِّه المتبلل ! !

المسلمون اليوم صح مُرادهم   قل المريد على مرادك أقبل
هذا صراع ليس فيه موضعٌ   لمؤمِّل أو منزل لممل ...
يكفى البكاء على تراث ضائع   يكفى الفخار بذاهب متنقل
والمجد لا يشرى بقول كاذب   إن كنت تبغى المجد يوماً فافعل !
ماذا ادخرتم من جهود فى غد   ماذا صنعتم منه للمستقبل ؟
النصر لم ينزل على متخاذل   والرزق لم يبعث إلى متوكل
فانزع لواءك من يد المستقتل   وانزع طعامك من يد المتطفل
واطلب محلك بالسيوف فإنه   بالسيف تنجاب الغمار وتنجلى
إنا سئمنا من كلام باطل   إنا شبعنا من لسان مِقْوَل . .

الشرق علته القديمة أنه   وسنان بين تصوف وتأمل ...
غرقان فى الأوهام نعسان المنى   متقيد الأيدى عثور الأرجل
الجهل آفته ، ورب جهالة   شر من الداء العياء المعضل
لا تستعيروا السيف من يد غيركم   بل فاصنعوه بكف أروع صيقل
والسيف تصنعه بكفك يتقى   ويصيب فى الأعداء أسوأ مقتل

الاستيراد والتصدير في النظم الإسلامية

للأستاذ لبيب السعيد



الاستيراد والتصدير من أهم ما يشغل بلدان العالم في السنوات الحاضرة وأزماتهما « لا ريب » من أشد الأزمات التي تواجهها الحكومات والشعوب ، فما يطامن من شدتها إلا الكثير من حكمة السياسة وسلامة الوطنية

وهؤلاء الأسلاف من رجال الأمة الإسلامية مدوا بأبصارهم في هذه الناحية أيضاً إلى آفاق بعيدة ، فبلغوا في نور شريعتهم الهادية وفي ظل هممهم العالية مجداً تجارياً لو أدخلنا في الاعتبار ملابسات زمانه لحق لنا أن نضعه غير متهيبين بجانب ما بلغته أرقى الدول الحديثة من نجاح تجاري عظيم .

عنى هؤلاء الأسلاف بالاستيراد والتصدير عناية أوفوا بها في زمانهم على الغاية . ولعل من أجل آيات هذه العناية أن يتناولها التأليف الإسلامي تناولا فيه تفصيل نافع ومعرفة مشرفة .

فالجاحظ يفرد في كتابه « التبصر بالتجارة » باباً لـ « ما يجلب من البلدان من طرائف السلع والأمتعة والجواري والأحجار وغير ذلك »(1)

وأبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي الذي عاش في القرنين الخامس والسادس الهجريين يضع كتاباً اسمه « الإشارة إلى محاسن التجارة » يوضح فيه ما يجب على أنواع التجار مراعاته ، فيذكر أن على المستورد الذي يبيع بالجملة — واسمه في مصطلح ذلك العهد : الخزان — تقديم المعرفة بأحوال البضائع في بلادها وانقطاع الطريق أو أمنها ، وعليه تقسيم شراء الصفقات الكبيرة في أربع دفعات توقياً من الخسارة ، وعليه تأمل أحوال السلطان الذي هو في كنفه ... الخ ، أما المصدّر — واسمه وقتئذ المجهز — فعليه أن يعين وكلاء له في البلاد التي يصدر إليها ليبيعوا بضاعته ويشتروا الأعواض عنها ، وذلك مقابل حصة في الربح . ويناقش أبو الفضل مسائل الاقتصاد النظرية كتحديد أسعار السوق ومتوسط السعر مما يدل على معرفة بالاقتصاد عريضة . (1)

(1) ص ٢٥ — ٣٤ .

وابن خلدون يعقد لموضوعات التجارة عدة فصول في مقدمته يضمنها توجيهات حصيفة ، ومن هذه الفصول فصل في نقل السلع دعا فيه المستوردين إلى تحري جهدهم في استيراد المواد الوسط التي يحتاج إليها الغني والفقير ، وأوضح كيف أن السلع التي ترد من البلد البعيد المسافة أو شديد خطر الطرقات أعظم ربحاً (2)

وظاهر أن لفتات الدمشقي وابن خلدون هي إلى اليوم بعض سنة المستوردين والمصدرين ، بل إن روح ابن خلدون إذ يرغب في استيراد ما ينفع الطبقات جميعها هي نفس الروح التي ينزع عنها الحذاق من موجهي سياسة الاستيراد في أيامنا هذه .

ومن مظاهر عناية المسلمين الصادقة بالتجارة الخارجية أنهم سهلوا طرقها ، فهيأوا الآبار حيث تسير القوافل ، وفي الثغور أقاموا المنائر . والأساطيل بنوها لحماية السواحل من إغارات لصوص البحار ، فلا غرو إذا كانت تجارة المسلمين حقبة طويلة سيدة التجارات ، ولا غرو إذا أضحى للإسكندرية وبغداد من الشأن ما جعلها وقتئذ تحددان أسعار البضائع في الدنيا (3)

وكان أهل البصرة ممن اشتهروا قديماً بالأسفار التجارية . ومن الأمثال التي عرفت : « أبعد الناس نجعة في الكسب بصري وخوزي (نسبة إلى خوزستان) ، ومن دخل فرغانة (في أقصى الشرق) والسوس (في أقصى الغرب) فلابد أن يرى بها بصرياً أو خوزياً أوحيرياً (4)

(1) راجع دائرة المعارف العمومية ص ٥٨٨ وما بعدها.
(2) راجع المقدمة ص ٤٤٣ .
(3) راجع « تاريخ الاسلام السياسي » لحسن ابراهيم حسن ج ٢ ص ٢٣١ .
(4) ابن الفقيه ص ١٩١

وكان في « سيراف » مستوردون ومصدرون واسمو الثراء يجوز مال أحدهم ستين مليوناً من الدراهم اكتسبها من تجارة البحر من العود والكافور والعنبر والجواهر والخيزران والعاج والأبنوس والفلفل وغيرها .(١)

ومن نماذج النشاط الكبير في التصدير أن تنيس « من بلاد مصر » كانت تصدر من الثياب الدبيقية إلى العراق وحدها ما تتراوح قيمته سنوياً بين عشرين ألفاً وثلاثين ألفاً من الدنانير(٢)

وكانت مدينة كابل مشهرة بنسج القطن الذي كانت تصدره إلى الصين (٣)

ومن التجار من كانوا ينقلون من بلاد الروس الشمالية إلى بلاد المسلمين جلود الخز وجلود الثعالب والسيوف والشمع والعسل (٤)

وكانت البذور تستورد من مختلف البلاد ، فقد استورد عبد الله بن طاهر حاكم مصر في عهد المأمون بذور البطيخ (العبد اللاوى) من خراسان (٥)

وكان عضد الدولة ينقل إلى بلاده ما لا يوجد بها من الأصناف ، ومما نقله إلى كرمان حب النيل(٦)

وفي عهده استوردت إلى بغداد الغروس من فارس (٧)

وقد حمل الأترج من الهند بعد سنة ٣٠٠ هـ ، فزرع بعمان ، ثم نقل إلى البصرة والعراق والشام حتى كثر في دور الناس بطرسوس وأنطاكية وسواحل الشام وفلسطين ومصر (٨)

وكان التمر في العراق وشمال أفريقية ينتج بكميات كبيرة ، فكان يجفف ثم يصدر إلى البلاد الأخرى(٩)

ومن الحقائق المعروفة أن العرب أدخلوا إلى أوربة أنواعاً شتى من الحاصلات كالحنطة والقنب والتوت والأرز والزعفران والليمون والبرتقال والبن والقطن والأزهار ... الخ

(١) الاصطخري ص ١٥٤ .
(٢) خطط المقريزي ج ١ ص٢٢٦.
(٣) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متزج٢ص٢٨١
(٤) المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ١٥٤ .
(٥) تجارب الأمم لمسكويه ج ٢ ص ١٩٣ .
(٦) نفس المصدر ص ٥٠٨ .
(٧) آدم متز ج ١ ص ٤٤ .
(٨) مروج الذهب للمسعودي ج ١ ص ٢٣٤ .
(٩) مسكويه ج ٢ ص ١٩٣ .

واختصت مدينة جور باستخراج ماء الورد وتصديره إلى الصين والهند واليمن ومصر والمغرب والأندلس(١)

وكان الانتاج الحيواني أيضاً موضع استيراد وتصدير ، فمصر كانت تستورد من برقة الكثير من الماشية للذبح كما تفعل الآن ، والعراق كانت تستورد الخيل من بلاد العرب ، وخاصة اقليم الحسا (٢) ، كما كانت تستورد الجاموس من الهند في القرن الرابع الهجري (٣)

وكانت مصر سنوياً تبيع إلى بلاد الروم من الشب ما تتراوح قيمته بين ثمانية وأربعين ألفاً واثنين وسبعين ألفاً من الدنانير(٤)

وقد أبدت النظم الإسلامية في سياسة التصدير حذقاً اقتصادياً لا نحسبه مسبوقاً ، ففي كرمان كثر التمر كثرة كانت أكبر من أن يواجهها التصدير العادي ، فعمد السلطان إلى تشجيع التصدير بمنح المصدرين جوائز كانت تبلغ في العام نحو مائة ألف دينار(٥)

والفقه الإسلامي في رشده ويقظته يوجب مراقبة المواضع التي تنفذ إلى بلاد الأعداء ، فالفقهاء على أنه « ينبغي أن يكون للامام مسالح على المواضع التي تنفذ إلى بلاد أهل الشرك ، فيفتشون من يمر بهم من التجار ، فمن كان معه سلاح أخذ منه وَرُدّ ، ومن كان معه رقيق رد ، ومن كان معه كتب قرئت كتبه ، فإن كان فيها خبر من أخبار المسلمين قد كتب به أخذ الذي أصيب معه الكتاب ، وبعث به إلى الإمام ليرى فيه رأيه » (٦)

وقد حكى « المقدسي » أن المراكب في فرض مصر كانت تفتش عند إقلاعها (٧) .

والصادرات خاضعة في النظم الإسلامية للضرائب . وفي جنوب جزيرة العرب كان لا يؤخذ بمدينة (عثر) إلا عما يخرج (٨)

وكافح النظام الإسلامي تهريب الواردات من التفتيش . وقد

(١) المسالك والممالك لابن حوقل ص ١٢٣ .
(٢) آدم متز ج ٢ ص ٢٨١ — ٢٩٤ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) خطط المقريزي ج ١ ص ١٠٩ .
(٥) المقدسي ص ٤٦٩ .
(٦) الخراج لأبي يوسف ص ١١٧ .
(٧) المقدسي ص ٢١٣ .
(٨) المقدسي ص ١٠٤ .

روى ابن جبير الأندلسي ما شاهده من دقة متناهية فى تفتيش بعض القادمين إلى الإسكندرية ، حيث « أدخلت الأيدى إلى أوساطهم ، بحثاً عما عسى أن يكون فيها ، ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا » (١) .

وقد عرفت النظم الإسلامية نظام تراخيص التصدير ، ولكن فى نطاق ضيّق بالطبع ، ففى (ما وراء النهر) لم يكن يكتفى بتقاضى ضريبة الصادر عن الرقيق الذين كانوا يعبرون نهر جيحون ، بل كان لابدّ لهم – باستثناء الجوارى التركيات – من جواز من السلطان (٢) .

والشريعة الإسلامية يمنعها أن تتوفر فى بلاد المسلمين حاجياتها من الحاصلات الخارجية ، فمع أن المشور وهى – فى مصطلح عصرنا – الضرائب الجركية تبلغ العشر عادة ، بل تجاوزه أحياناً بالنسبة لبعض الأصناف ، فإن للامام « عند الشافعية » أن ينقصها إلى نصف العشر ، بل له أن يرفعها كلها إذا رأى المصلحة فى شيء من ذلك . وقد كانت التعريفة الجركية تتفاوت من بلد عن بلد ، فهى فى جُدّة مثلا غيرها فى الإسكندرية ، غيرها فى البصرة ، غيرها فى الموانى الإسلامية الأخرى ، كما كانت هذه التعريفة تتفاوت بحسب البلد الواردة منه البضاعة ، فبضائع الهند مثلا غير بضائع السند ، وهكذا (٣) .

والشريعة لا تغفل عما يتبع كثرة المشور من نقص فى واردات المسلمين يمسهم بالضر ، ولذلك ترى أن لا يزيد أخذ المشور من كل قادم بالتجارة على مرة واحدة فى كل سنة ولو تكرر قدومه ، إلا أن يقع التراضى على غير هذا .

على أن الشريعة تأبى تشجيع استيراد مالا ينفع الناس ، فهى بصدد الخمر مثلا تتمسك بالعشر .

ومما يجدر ذكره أن نظام العلامات التجارية بالنسبة للصادرات وجد بصورة ما عند المسلمين ، فالمقدسى يروى أن أسفاط الثياب الشطوية التى كانت تصنع بمصر كانت توضع عليها فى الموانى علامات المصدّرين . (٤)

(١) رحلة ابن جبير الأندلسي ط ليدن ص ٣٥ ، ٣٦ .
(٢) المقدسى ص ٣٤٨ .
(٣) راجع الخراج ليحى بن آدم ص ٥١ .
(٤) المقدسى ص ٢١٣ .

ويتردد الآن كثيراً أن أغلب المستوردين والمصدرين هم من اليهود ، ومن يخبط فى أغوار الماضى ير أن اليهود كانوا فى القديم أيضاً مبرّزين فى ذلك الميدان ، فقد كانوا لا ينفكون ينتقلون بالتجارات شرقاً ومغرباً ، فكانوا يجلبون من الغرب الجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور (١) ، وكانوا فى عودتهم من الهند والصين يحملون سلع الشرق كالمسك والعود والكافور والدارصينى (٢) .

وقد كان لهم بمدينة أصبهان حى يسمى باليهودية ، وكانوا هم أغلب تجار مدينة تستربخوزستان ، وكانوا يشرفون على تجارة اللؤلؤ الذى يستخرج من خليج فارس (٣) .

وكان المسلمون يتعاملون بالدينار ، وهو يساوى أربعة عشر درهماً ، ولكن قيمته كانت تختلف من حين إلى حين ، ومن بلد إلى بلد ، فهو تارة يعادل عشرة دراهم وتارة ثلاثة عشر درهماً وتارة أخرى خمسة عشر درهماً .

ومن وسائل التعامل وقتئذ الصكوك (الشيكات) والمقايضة .

ولقد واجه المسلمون فى عهد عبد الملك بن مروان مشكلة نقدية تستحق الذكر ، فقد رأى عبد الملك أن تكتب على رؤوس الطوامير (الصحف) عبارات إسلامية ساءت الروم ، وسدى ما حاولوا ثنيه عنها ، فهددوا بأن يأتى المسلمين فى الدنانير من ذكر نبيهم ما يكرهون ، وصدفوا عن شراء الورق من العرب ، ومن ثمّ انقطعت العلاقات التجارية بين الدولتين . وكانت الدنانير البيزنطية والدراهم الفارسية مستعملة لدى العرب ، فسحبها عبد الملك ، وسكّ بدلها عملة جديدة تحمل بعض آى القرآن ، فلما أديت هذه العملة إلى الروم غضبوا ، وفسد ما بينهم وبين العرب ، مما أدى إلى وقوع الحرب (٤) .

وبعد ، فقد انعقد للمسلمين لواء الزعامة التجارية فى العالم حيناً من الدهر غير قصير ، كان فيه الغرب عيلة على الشرق . لم يسترح المسلمون وقتئذ إلى الهيّن من المقاصد ، ولم يثقل عليهم الكدح الدائب ، ولكن مضوا فى سبيلهم إلى السيادة والمجد فى

(١) المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ١٥٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٥٤ .
(٣) تجارب الأمم لمسكويه ج ١ ص ٢٥٦ .
(٤) أنظر النظم الاسلامية ص ٢١٩ ، ٢٢١ .

الطريقة العلمية في تحري الأحاديث النبوية

للأستاذ قدري حافظ طوقان



حين رأى العرب أن من الناس من يستبيح لنفسه وضع الأحاديث ونسبتها كذباً إلى رسول الله ، ولما كان الحديث من أغزر المنابع للتشريع الإسلامي في العبادات والمسائل الدينية والجنائية ، لهذا ودفعاً لكل فوضى في وضع الأحاديث فقد وضع جماعة من العلماء الصادقين طرقاً لتنقية الحديث مما ألم به وتمييز صحيحه من موضوعه . وقد سلكوا في ذلك طرقاً دقيقة علمية يصعب معها التلاعب أو الاختلاق كما وضعوا قواعد للتوصل إلى الحقيقة في الحديث « تتفق في جوهرها واتجاهها والأنظمة التي كشفها علماء أوربا فيما بعد في بناء علم الميثودولوجية ... » .

قال علماء الحديث بالأمانة في نقل الحديث وفرضوا وجوب تحري النص لأجل الوقوف على اللفظ الأصلي . ولقد وضع القاضي عياض رسالة في علم المصطلح هي أنفس ما صنف في مجموعها « وقد سما بها القاضي إلى أعلى درجات العلم والتدقيق ... » ويعترف الدكتور أسد رستم بفضلها فيقول « ... وعلى الرغم من مرور سبعة قرون عليها فإنه ليس بإمكان رجال التاريخ في أوروبا وأمريكا أن يكتبوا أحسن منها في بعض نواحيها . وأن ما جاء فيها من مظاهر الدقة في التفكير والاستنتاج تحت عنوان تحري الرواية والمجيء باللفظ يضاهي أدق ما ورد في الموضوع نفسه في أهم كتب الإفرنج في ألمانيا وفرنسا وأمريكا وانكلترا ... » .

وطالب علماء الحديث بتمييز رواة الحديث والتدقيق في معرفة قيمة المحدث ووضعوا قواعد لتجريحه وتعديله . فلقد جاء في بعض مصنفاتهم ما يلي : قال الإمام مالك بن أنس ، وكان ذلك قبل اثني عشر قرناً : « ... لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ ممن سوى ذلك : لا يؤخذ من سفيه ولا من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه ، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس وإن كان لا يتهم على أحاديث الرسول ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدث به ... » .

وهناك أقوال لغير هؤلاء تبين القواعد التي على أساسها يؤخذ الحديث وتوضح الصفات التي يجب أن يتحلى بها الراوي لقبول روايته . وقسم العلماء الحديث بحسب قوته والأخذ به إلى أقسام وأطلقوا على كل قسم إسماً فقسموه إلى متواتر وآحاد . فالمتواتر ما رواه جماعة يؤمن من تواطئهم على الكذب عن جماعة كذلك إلى رسول الله . والآحاد هي الأحاديث غير المتواترة وقد قسموها أيضاً بحسب قوتها . وهكذا سار العرب والمسلمون في الحديث . ومنهم من كان يتركه إذا عارض القياس . ومنهم من كان يتركه إذا خالف المعقول .

وكان للحديث أثر كبير في أسلوب العرب وتفكيرهم ، فهو من أكبر العوامل في نشر الثقافة في العالم الإسلامي . أقبل عليه الناس يتدارسونه ودارت عليه حركة الأمصار العلمية ولا سيما في صدر الاسلام ، وعن طريقه انتشرت في العالم الإسلامي أنواع من

عزم وجلد ، وعلى بصيرة واستواء . . . يحكي ابن خلدون أن ما كان يقال في عهده عن أهل الشرق الأقصى من عراق العجم والهند والصين في باب الغنى غرائب تسير الركبان بحديثها ، وربما تتلقى بالإنكار في غالب الأمر ! وينبي التاريخ أن أحد تجار البصرة في القرن السادس الهجري ، واسمه حسن بن العباس كانت له مراكب تسافر إلى أقصى الهند والصين . وقد بلغ مقدار ما يؤخذ من ضرائبها مائة ألف دينار ! .

ألا إن لنا في ميدان الاقتصاد كما لنا في ميادين الحضارة الأخرى ماضياً يستحق أن نأسى عليه ، فهل يكون لنا المستقبل الذي نتشوف إليه ؟ .

لبيب السعيد
رئيس قسم المنسوجات بالمراقبة العامة للاستيراد

الثقافة عدة ... « فالتاريخ الإسلامى بدأ بشكل حديث كالذى ترى فى كتب الحديث من مغاز وفضائل أشخاص وفضائل أمم . ثم تطور التاريخ إلى أن صار كتباً قائمة بنفسها . ودليلنا على ذلك أن كتب التاريخ الأولى كسيرة ابن هشام وما يروى ابن جرير عن ابن إسحاق ، والبلاذرى فى فتوح البلدان يكاد يكون نمطها وأسلوبها نمط حديث وأسلوب حديث . وقصص الأنبياء وما إليهم جاءت فى القرآن وتوسع فيها الحديث ثم توسع القصاص . فكان القصص ... » .

وفوق ذلك فقد ثبت أن المسلك الذى اتبعه العرب فى تنقية الحديث وتمييز صحيحه من موضوعه قد أثر إلى حد فى أساليب العلماء إذ أبان لهم أهمية اتباع الطرق التى تؤدى إلى الحق كما أوضح لهم منهاجاً دقيقاً للسير بموجبه للوصول إلى الحقيقة وإلى الصحيح من الوقائع والأخبار والأقوال . وكذلك كان للأساليب التى اتبعها علماء الحديث فضل كبير على التاريخ « وأصبحت القواعد التى ساروا عليها فى تحرى الحقيقة هى المعول عليها لدى المؤرخين المعاصرين » ومحل تقديرهم وإعجابهم .

ولقد كان لعلماء الحديث فضل على التاريخ وأثر على الأسلوب الذى يسير عليه المؤرخون المعاصرون ، وكذلك كان لعلماء التفسير فضل وأثر لا سيما وأن الأسس التى اتبعوها فى أصول التفسير علمية وصحيحة ، يتجلى ذلك فى رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية فى أصول التفسير وفى تفسير الزمخشرى . ولولا الخوف من الإطالة لأتينا على بعض نصوص تؤيد ما ذهبنا إليه .

ووضع العرب مصنفات فى علوم الدين سار بعضهم فيها على منهج علمى . وكان الشافعى أول من وضع مصنفاً فى أصول الفقه على أسس علمية . قال مصطفى عبد الرازق : « إذا كان الشافعى هو أول من وجه الدراسات الفقهية إلى ناحية علمية فهو أيضاً أول من وضع مصنفاً فى العلوم الدينية على منهج علمى بتصنيفه فى أصول الفقه ... » واعترف الرازى بفضل الشافعى فقال ... « اتفق الناس على أن أول من صنف فى هذا العلم رأى أصول الفقه — الشافعى . وهو الذى رتب أبوابه وميز بعض أقسامه من بعض وشرح مراتبها فى القوة والضعف ... » ويقول جولد زيهر : « وأظهر مزايا الشافعى أنه وضع نظام الاستنباط الشرعى فى أصول الفقه ، وحدد مجال كل أصل من هذه الأصول .

وقد ابتدع فى رسالته نظاماً للقياس العقلى الذى ينبغى الرجوع إليه فى التشريع من غير إخلال بما للكتاب والسنة من الشأن المقدم . رتب الاستنباط من هذه الأصول ووضع القواعد لاستعمالها بعد أن كان جزافاً ... »

ويتجلى أسلوب الشافعى العلمى فى رسالته فهو يسلك فى سرد المباحث وترتيب الأبواب نسقاً مقرراً فى ذهن مؤلفها » وقد يختل اطراده أحياناً ويخفى وجه التتابع فيه ، ويعرض له الاستطراد ويلحقه التكرار والغموض ولكنه على ذلك كله بداية قوية للتأليف العلمى المنظم ، فى فن يجمع الشافعى لأول مرة عناصره الأولى » ...

وتتجه الرسالة اتجاهاً منطقياً إلى وضع الحدود والتعاريف أولا ثم الأخذ بالتقسيم مع التمثيل والاستشهاد لكل قسم . «وقد يعرض الشافعى لسرد التعاريف المختلفة ليقارن بينها وينتهى به التمحيص إلى تخير ما يرتضيه منها ... »

وكذلك تمتاز الرسالة بالأسلوب الذى اتبعه فى « الحوار الجدلى المشبع بصور المنطق ومعانيه حتى لتكاد تحسبه لما فيه من دقة البحث ولطف الفهم وحسن التصرف فى الاستدلال والنقض ومراعاة النظام المنطقى حواراً فلسفياً على رغم اعتماده على النقل أولا بالذات واتصاله بأمور شرعية خالصة » .

(نابلس) قدرى حافظ طوقان